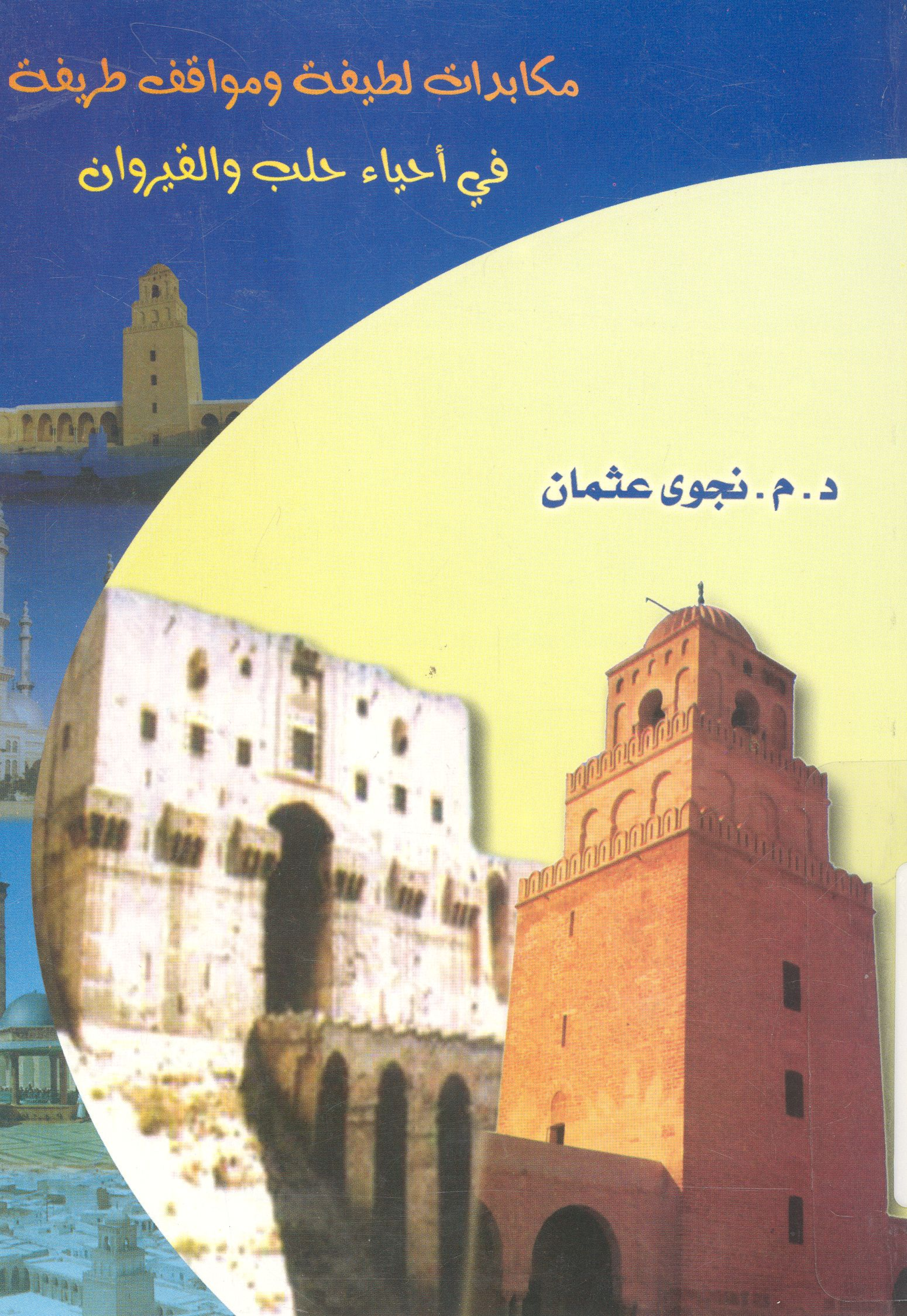
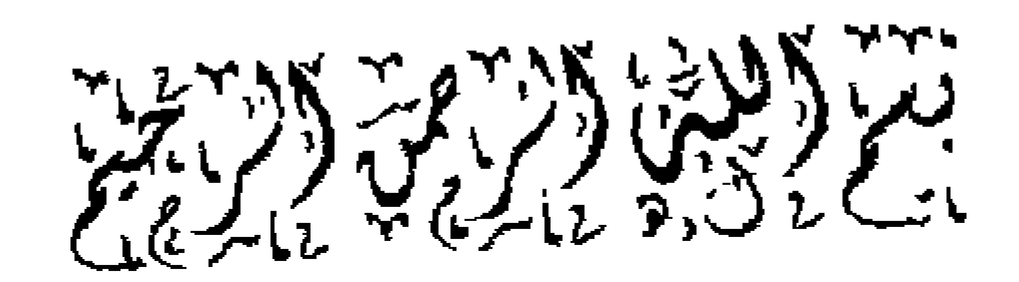


مكابدات لطيفة ومواقف طريفة في أحياء حلب والقيروان

د. م. نجوى عثمان



مكايدات لطيفة ومواقف طريفة

في أحياء حلب القيروان

الطبعة الأولى

٢٠٠٤/١٤٢٥

يطلب من المؤلفة

تلفاكس ٢٢٦٦٢٢٤ ٢١ ٠٠٩٦٣

ص.ب ٨٦٧٤ حلب ـ سورية

E-mail: najwa.o@scs-net.org

إهـــــداء٢٠٠٦
الأستاذ الدكتور/ خالد عزب
الإسكندرية

مكابدات لطيفة ومواقف طريفة

في أحياء حلب والقيروان

الدكتورة المهندسة

نجـوى عثمـــان

٢٠٠٤/١٤٢٥

موافقة وزارة الإعلام
رقم ٧٦٧٦٧ في ٢٠٠٤/٣/٣

تنضيد: المؤلفة
تصميم الغلاف: المهندس خير الدين لبابيدي
طبع: مطبعة الجمهورية في حلب
هاتف ٣٣١٨٨٨٢

المواقف التي سأحكيها لكم هي واقعية تماماً، وكما حصلت معي، دون خيالٍ أو إضافة.. .. وحرصت على أن أنقل الحوارات بحـرفيتها، وإن صـغت بعضها باللغة العربية الفصحى، وتركت بعضـها الآخـر باللهجـة العامية، حيثما وجدتها أكثر تعبيراً عن الموقف ...

تبدأ هذه المواقف عام ١٩٨٧، عندما بدأت جولاتي الميدانية على مساجد حلب، تحضيراً لرسالة الماجستير، وتمر بعام ١٩٩٣، الـذي قمت فيه بجولاتٍ ميدانية على مساجد القيروان، كجزءٍ من رسـالة الدكـتوراه، وتنتهـي صيف عام ٢٠٠١، إذ سافرت إلى القيروان هادفة إلى استكمال معلومات جمعتها لكتاب أعده بعنوان: "الزوايا والمدارس الأثرية في القيروان".

فـي هذا الكتاب... اخترت أكثر المواقف تأثيراً في نفسي، ولربما أنشر مواقف أخرى في كتابٍ آخر.

أسـتمتع باسـتعادة ذكـريات مضت... وأسعد إذ وصلت، والحمـد لله، إلـى مـا سـعيت إلـيه، مع كل الصعوبات التي واجهتني....

٢٩/٢/٢٠٠٤

د. م. نجوى عثمان

أبو علي البقال

بدأت جولتي الميدانية على مساجد ساحة الملح، ومن مساجد هـذه السـاحة، وفق ما هو مسجل في قائمة لمساجد حلب حصلت عليها من إحدى الدوائر الرسمية، " مسجد البق ".

سألت كثيراً في ساحة الملح عن " مسجد البق "، ولم يعرفه أحـد. وأشفق عليّ مدير إحدى المدارس الابتدائية في حلب، وكما علمـت فيما بعد، هو مدير في الصباح، ومصلح لكهرباء سيارات السـوزوكي في المساء، واقترح عليَّ المدير الكهربائي أن أجلس فـي حانـوته الملاصق لمسجد ألتون بغا، ريثما يرسل ابنه ليسأل كبار السن في المنطقة علّهم يعرفون شيئاً عن هذا المسجد.. وعاد الابن كما ذهب. شكرت المدير الكهربائي وانسحبت حزينة شاردة، وعـندما وصـلت إلى مكان قريب من مسجد الأطروش، التقيت بشيخ أفندي، يلبس بنطالاً فوقه معطف باكستاني وقبعة باكستانية، ولـه لحية. لحقت به وسألته: عفواً يا حاج.. هل يمكنك أن تدلني علـى "مسجد البق" ؟ أجاب: يا ابنتي، هناك مثل حلبي يقول: "بين ساحة بزة وجامع البق ضاع الحق".. فجامع البق في ساحة بزة.

عندما وصلت إلى تلك الساحة البعيدة عن ساحة الملح، كان وقت صلاة العصر قد مضى، والمسجد مغلق طبعاً.. وبدأت عملية البحث عن مفتاح المسجد (كالعادة). دلني أهل الساحة على حانوت بقّال عنده مفتاح المسجد، بحكم حق الجوار.. ردّدْتُ على مسامع البقال العبارة التي حفظتها عن ظهر قلب: "أنا مهندسة باحثة في معهد التراث بجامعة حلب، أحضر الماجستير حول مساجد حلب، عندي موافقة من مدير الأوقاف لزيارة المساجد خارج أوقات الصلاة.. أرجو أن تفتح لي المسجد". سألني: وماذا تدرسون في معهد التراث؟ أجبته: تاريخ العلوم.

انتفخ البقال، وأسند ظهره إلى كرسيه، وقال: يا ابنتي.. اسألي ما تشائين عن تاريخ حلب.. فلا يوجد أحد في حلب خبير بالتاريخ مثلي.. لقد تجاوزت الثمانين من العمر، كل من يريد شيئاً عن تاريخ حلب يعود إليّ . سأروي لك الآن بعضاً من تاريخ هذه المدينة العريقة، وإذا احتجت في المستقبل إلى معلومات أخرى، تعالي إلى هذه الساحة، فقط قولي: أين "أبو علي"؟ والكُلُّ يدلُّك.. كل مبنى في حلب يحمل اسم بانيه.. فمثلاً: على مقربة من هذه الساحة "باب النسرين".. أو تدرين لماذا سمي بـ"باب النسرين"؟ .. في قديم الزمان حكمت حلب ملكة اسمها نسرين، بنت هذا الباب فسمي بـ"باب النسرين" !! ..

أطرقت مفكرة: إن تجربتي مع أصدقائي، وكلهم من المسنين، علمتني أن لا فائدة من محاولة تصحيح معلوماتهم الخاطئة، لأنهم يؤمنون بأنهم أعلم منا بكل شيء . هل سيصدقني أبو علي إن قلت له: إن اسم الباب القريب من تلك الساحة هو "باب قنسرين" وأنه سمي بذلك الاسم لأن القوافل التجارية والمسافرين كانوا يخرجون منه متوجهين إلى "قنسرين" ، وأنه قديم جدده سيف الدولة الحمداني ثم الملك الناصر يوسف سنة ٦٥٤، ثم السلطان قانصوه الغوري سنة ٩٠٧؟ .. طبعاً سيغضب ولن يصدقني. ووجدت نفسي أسأله : ولماذا سمي مسجدكم بـ"مسجد البق" ؟ سر أبو علي كثيراً لسؤالي، وأشار إليّ أن أتبعه. دخل زقاقاً ضيقاً قرب المسجد، وطرق باباً صغيراً منادياً من بالداخل أن يفتح .. وعندما دخلت رأيت بستاناً كبيراً. بدأ أبو علي يشرح لي: هذا البستان يقع خلف المسجد، وكما ترين هو في وادٍ منخفض، وفيه زرع كثيف، فيكثر فيه البق[1] الذي ينتقل منه إلى المسجد ويضايق المصلين، ولذلك سمي هذا المسجد بـ"مسجد البق" .. رددت بيني وبين نفسي: ربما يكون أبو علي قد أصاب في هذه المرة .. ربما يكون على حق .. ..

---

[1] البق عند أهل حلب تعني البعوض

البرغل مسامير الركب

نـــزلت في ساحة قاضي عسكر، وتوجهت جنوباً أقدم رجلاً وأؤخر أخرى .. لا أدري لماذا تركت كلمة "صاچليخان" في نفسي انطـــباعاً خاصاً مهيباً، وكأنني سأدخل عوالم أخرى .. ربما بسبب معنـــى الكلمـــة الـــذي قـــرأته فـــي موسوعة الأسدي. فهي إما: صـــاجليخان أي الخـــان ذو الباب المصفح بصفائح الحديد، ووقع الكلمـــة علـــى أذنـــيّ جعلني أتوهم أنني سأدخل خاناً كبيراً تتقدمه أبـــواب حديديـــة كبيـــرة عالية ضخمة. وإما صاچليخان أي خان الـــرجل ذي الشعر الطويل، وهذا خلق عندي تصوراً أنني سأقابل رجالاً بشعورٍ طويلةٍ وهيئات خاصة.

دخلـــتُ صـــاچليخان فوقاني وأنا أتلفتُ حيناً وأطرق رأسي وأســـرع الخطى أحياناً .. وما أن اجتزتُ صاچليخان فوقاني إلى صـــاچليخان تحتاني حتى زال توتري، إذ وجدت كل شيء حولي طبيعـــياً، وكأنني أمشي في أي شارع من شوارع حلب. وانحرفت إلـــى البلاط التحتاني فالبلاط الفوقاني، ووصلت أخيراً إلى "مسجد

الـــبلاط" الــذي كـــنت أقصد .. فوق الباب الشمالي مئذنة دائرية، بشـــرفة دائرية على مقرنصات جميلة، والنهاية مخروطية كنهاية قلـــم الرصـــاص .. " المـــئذنة عثمانـــية " .. اجتزت المدخل إلى الصـــحن، شدت انتباهي واجهة القبلية، فهي من الحجر المنحوت، تعلـــوها ٣ قباب، الوسطى أكبر وأعلى من القبتين المجاورتين .. وبدأت بتسجيل ملاحظاتي.

يـــبدو أن وجـــودي وســـط صحن المسجد ، والدفتر والقلم بـــيدي، أفحـــص وأبحـــث وأكتب، أثار فضول أحد أبناء المنطقة، فأحـــب أن يعرض عليّ خدماته ومعلوماته: عفواً يا أخت .. ماذا تفعلـــين؟ أجبـــته: كمـــا ترى.. أسجل معلومات هندسية عن هذا المســـجد، فأنا أحضر دراسة هندسية عن مساجد حلب. قال: حسناً .. تعالي لأريك ما يميز مسجدنا عن مساجد حلب جميعها! واتجه شـــرقاً .. وصعدنا عدة درجات إلى دكة (مسطبة) مبلطة بالحجر المـــنحوت تحـــتل القسم الشرقي من الصحن، ووصلنا إلى الجدار الشرقي. أشار إلى طاقة في الجدار يعلوها قوس عثماني، وداخلها كـــتابة بقلـــم شـــينيار أســـود وبخط حديث.. قال: هنا قبر الولي الصحابي الشيخ ندى، رأيته في الليل بلباس أبيض، دخل من الباب الغربي وجلس على هذه الدكة .. وعلى هذه الدكة نفسها جلس أبو عبيدة بن الجراح، وأكل مع أصحابه "البرغل باللحم" .. سألته: أبو

عبـــيدة أكل البرغل على مسطبة مسجدكم؟ .. قال: طبعاً، البرغل مسامير الركب، إذن كيف تمكن وأصحابه من فتح حلب؟! .. ..

طــرقت مفكـــرة: أجل إن البرغل مسامير الركب.. طالما ســـمعت هذه العبارة من جدتي رحمها الله.. ولكن .. هل كان أهل حلـــب أو العـــرب الفاتحون يعرفون البرغل عام ١٧ هــ؟ .. إن كـــتب التـــراث تذكـــر أن الحلبيين عرفوا البرغل من التتر حينما اســـتولوا عام ٦٥٨ هــ على حلب، إذ كان زادهم في أسفارهم .. أمـــا أبـــو عبـــيدة فقد توفي عام ١٨ هــ بطاعون عمواس ودفن بـــأرض فلســـطين. ووصف الغزي لصحن المسجد: "وفي شرقيّه حوض منخفض عن أرضه قليلاً" ، يعني أن الدكة أنشئت بعد عام ١٩٢٦م، تـــاريخ طـــبع كتاب الغزي. ثم إن المسجد كله أنشئ في العصر العثماني عام ١٠٦١ هــ فمتى جلس أبو عبيدة والفاتحون على دكة هذا المسجد، وأكلوا البرغلَ " مساميرَ الركبِ " ؟!.

بين الحراب والذباب

فـــي جولتي على مساجد باب النصر، زرت مسجداً قرأت على حجرة فوق مدخله أنه أنشئ عام ٦١٢ هـــ. دخلته وتأملته .. مـــا زال محـــتفظاً بسماته الأيوبية. سألت عن اسمه، فقيل لي: إنه "مســـجد الدبانـــة" أي الذبابة.. .. قلت لنفسي: المساجد تنسب إلى الـــبق والذباب !! .. من أين أتوا بهذه الأنساب؟ .. وبالعودة إلى قـــوائم مساجد الأوقاف، لم أجد مسجداً بهذا الاسم .. إذن لا بد أن يكون له اسم آخر.

بعد أيام وصلت بالبحث إلى محلة القواص، ووجدت مسجداً مغلقـــاً .. دلني أهل المنطقة على بيت الإمام: قرب زاوية البعاج، أمـــام حمام القواص. طرقت الباب ففتح لي شيخ في الخمسين من العمر، أسمر اللون، ضخم الجثة، طويل اللحية، يلبس ثوباً أبيض، ويضـــع على رأسه طربوشاً أخضر. رددت بيني وبين نفسي: لا شـــك بأنـــه شيخ زاوية. قدمت له نفسي، فاصطحبني إلى مسجده، وهـــو يقـــول: إنه "مسجد شرف الدين" ، أو "مسجد السَيِّدَة" .. كان

فـــيه مجموعة من القبور لأبناء السيد .. سُيَّدة هي جمع سيد. قلت له: إذن هم أجدادك، ولذلك جعلت المسجد زاوية ؟.

عـــندما وقفنا أمام واجهة بيت الصلاة قال: انظري .. هناك أعلـــى الـــواجهة تـــوجد نجمة سداسية .. أو تعرفين معنى النجمة السداسية؟ قلت: إنها عنصر تزييني ليس إلا .. ترسم وتنفذ بأبسط الأدوات .. تقاطع مثلثين متساويي الأضلاع. قال: النجمة السداسية ترمز إلى اسم الله الأعظم، فكلمة " الله " مؤلفة من ستة أحرف .. وأمســك ورقـــة وقلماً، وتابع تفسيره: بعد فك الإدغام، وأخذ المَدً بعـــين الاعتـــبار يصـــبح عندنا: ا ل ل ل ا هـــ .. واتخاذ النجمة السداســـية كرمـــز لاسم الله الأعظم يعود إلى عهد النبي إسرائيل عليه السلام .. لقد قرأت ذلك في الكتب.

لفـــت استرســـاله بالشرح انتباهي، وكان "مسجد الدبانة" ما يـــزال يشـــغلني، فســـألته: ومـــاذا تعرف عن مسجد الدبانة بباب النصـــر؟ قـــال: والـــدي إمام هذا المسجد اسأليه عنه يجبك .. إنه صاحب مكتبة في باب النصر قرب المسجد. شكرته وقصدت باب النصر وأنا فرحة بهذه الصدفة الحسنة.

فـــي المكتـــبة وقفت أمام شيخ أبيض اللون، صغير الجسم، بلحـــية خفيفة بيضاء.. لطيف رقيق، يشعُّ النورُ من وجهه... ... قـــدمت له نفسي، فبكى عندما سمع أنني أقوم بدراسة عن مساجد

حلب، والتفت إلى رفوف الكتب يغير أماكنها، ويعيد ترتيبها مدارياً دمعته، ثم رحب بي، وقدم لي كرسياً لأجلس عليه. سألته: ما اسم مسجدك؟ قال: إنه "مسجد سِنْكَلَر" .. سنْكة كلمة تركية تعني "حربة" ، و"لر" علامة الجمع باللغة التركية.. فسنكلر تعني "الحراب". أعتقد يا ابنتي أنه سمي بهذا الاسم لأنه، كما يقال، كان هنالك سرداب يصل بين القلعة وهذا المسجد، وعندما يهدد العدو هذا الباب، يأتي المدافعون عن البلدة من القلعة حاملين حرابهم، ويضعونها في المسجد فسمي بهذا الاسم، والله أعلم.

قلت له: ولكن أصحاب المكتبات المجاورة يسمونه بـ"مسجد الدبانة " فما هو السبب؟ أجاب: أجل .. لأنه لا تدخله أية ذبابة على مدار العام، صيفاً أو شتاء .. وتابع: لقد بقي هذا المسجد مهملاً سنوات عديدة حتى إن القائمين على مخفر باب النصر المجاور له كانوا يستعملونه كمستودع: وأحياناً يوقفون فيه السجناء. وفي عام ١٩٤٤ طالب أصحاب المكتبات مديرية الأوقاف بالسعي إلى إعادته مسجداً تقام فيه الصلاة، فلبت طلبهم... قلت لنفسي: ربما لهذا السبب لم يذكره الغزي في كتابه "نهر الذهب"! واستطردت محدثة نفسي: ولكنني قرأت كل ما وصلت إليه يدي من كتب التاريخ والتراث والعمارة والآثار

المـــتعلقة بحلب، وما وجدت ذكراً لمسجد داخل باب النصر تحت أي من الاسمين..

شـــكرت الشيخ.. ودفعني فضولي للدخول إلى المسجد بحثاً عـــن الـــذباب.. تجولت في أرجائه، ثم جلست أراقب منافذه، وكل ركـــن فـــيه.. حتى أحواض الوضوء، وما وقعت عيني على ذبابة واحـــدة.. ربما لأن المروحة السقفية كانت تعمل بأقصى سرعة.. وربما للنظافة والترتيب الكبيرين اللذين لاحظتهما في هذا المسجد. وقـــررت أن أزوره كلما مررت بالمنطقة لأبحث عن الذباب.. ثم انصـــرفت وأنـــا أردد: بين الحراب والذباب.. ضاع المسجد وتاه أولو الألباب[١].

---

[١] الذباب في اللغة التركية: سِنَكْلَرْ (sinekler) .
والحراب في اللغة التركية: سُنْكُلَرْ (süngüler).

بنات آخر زمان

نزلت من باص القلعة، وتوجهت نحو جنينة الفريق، ومنها إلـــى ســـاحة بـــزة، ومـــن هناك قصدت "مسجد عبيس" .. دخلت القبلـــية.. ولـــم أجـــد أحداً يعترضني، فبدأت بتسجيل ملاحظاتي الهندســـية. وإذ بـــرجل مسن يلبس سروالاً أسود اللون فضفاضاً، فـــوقه قمـــيص وجاكـــيت، ويضع على رأسه منديلاً أبيض، يتجه نحوي بسرعة، ويسألني بعصبية: ماذا تفعلين هنا؟ .. كيف دخلت؟ .. أجبته: أنا مهندسة وباحثة من جامعة حلب، أجري دراسة حول مســـاجد حلـــب.. عندي موافقة من مديرية الأوقاف ومن الجامعة لـــزيارة المســـاجد.. .. ويبدو أنه لم يسمع حرفاً مما قلته، إذ كرر بعصـــبية زائدة: أجيبي كيف دخلت؟ قلت بهدوء: من الباب طبعاً. صـــرخ بأعلـــى صـــوته: اخرجي.. اخرجي.. قلت لك: اخرجي بسرعة.

خـــرجت من القبلية إلى الصحن، ثم التفت إليه وقلت: ولكن عندي موافقة من مدير الأوقاف، وفتحت حقيبتي لأخرجها، وإذ به

يهجـم علـيّ، ويدفعني بكلتا يديه نحو باب المسجد، وهو يصرخ: اخرجي.. أنا لا أعترف لا بمدير الأوقاف ولا بغيره. خرجت وأنا أكاد أختنق لشدة غضبي.

بعد أشهر وجدت أنني بحاجة إلى إتمام المعلومات حول هذا المسـجد، فوصـلته بعدما بدأ الإمام بصلاة الظهر.. دخلت القبلية بهـدوء، ووقفـت خلف المصلين ملصقة ظهري بالجدار الشمالي للقبلـية كـي لا يراني أحد. وأخذت بتسجيل المعلومات، وأنفاسي تـتلاحق خـوفاً من أن ينتهي الإمام من الصلاة قبل أن أنتهي من تسـجيل المعلـومات اللازمـة فيطردني. وفجأة سلم الإمام نحو اليمـين، وعندما التفت نحو اليسار ليسلم، لمحني، فهب واقفاً وكأن حـية لسـعته، واتجـه نحـوي وهو يصرخ: اخرجي.. اخرجي بسـرعة، ولا تريـنـي وجهك.. .. قلت: لماذا تطردني؟ إنه مسجد لكـل الـناس.. اعتبرنـي سائحة. فصرخ بأعلى صوته: لا مكان للسـياح في مسجدي.. اخرجي. ولم يكتف بما فعله داخل المسجد بـل لحـق بـي إلى ساحة بزة، وأمام أصحاب المحلات التجارية والمـارة، قال لي محذراً ومهدداً: إياك أن أراك هنا ثانية. والتفَّ حولي أصحاب المحلات التجارية متسائلين: ماذا حصل؟!! اكتفيت بـأن قلـت: إنه رجل غريب.... لم أرَ إماماً مثله. أجاب أحدهم: ليس بإمام.. عُيِّنَ خادماً فنصَّبَ نفسَه إماماً.

بعد أكثر من سنة، وبينما كنت أضع اللمسات الأخيرة على رسـالة الماجسـتير، وجـدت أنني لم أستكمل المعلومات المتعلقة بـ"مسجد عبيس" خاصة الحجازية والصحن والأروقة.. فتوجهت إلـيه ووصـلته بـين الظهـر والعصر.. .. كان الباب الخارجي مفـتوحاً، فدخلت إلى الصحن، وبدأت بتسجيل المعلومات، وقلبي يخفق بسرعة، ولساني يسابق دقات قلبي مردداً: الحمد لله.. الحمد لله.. وفجـأة سـمعت أحدهم يصيح بي: ماذا تفعلين هنا؟ .. تلفت حولـي فلـم أرَ أحداً.. فتابعت عملي.. وجاءني السؤال ثانية: ألم تسـمعي؟ .. ماذا تفعلين هنا؟ .. التفت نحو مصدر الصوت، وإذ بـي أرى رأساً قد خرج من فتحة كسر زجاجها في نافذة القبلية.. .. إنه رأس الإمام.. .. أجبته: لقد اقترب وقت صلاة العصر، ولم أصلِ الظهر حتى الآن.. أتمنى أن تفتح لي الحجازية لأصلي فيها. قـال: صلي في بيتك. قلت: بيتي بعيد عن هذا المكان، وإن فاتني وقـت الصـلاة، فهـو في رقبتك. قال: صلي في الرواق. قلت: الـرجال يصـلون هناك، ولا يجوز أن أصلي بينهم.. .. افتح لي الحجازية، وإن لم تفعل، فسأشكوك إلى الله.

مـا أن قلت هذه العبارة، حتى دخل شيخ من الباب الشمالي للمسجد، يلبس جبة خضراء داكنة، ويضع على رأسه عمامة كبيرة بيضاء.. لقد تذكرته، إذ كنت قد التقيت به في الجلوم، وكان لطيفاً

جــداً معــي، ناقشــته، وأجابني عن الكثير من الأسئلة التي كانت تشــغلني حول مساجد ذلك الحي.. فاستبشرت بمرآه خيراً. ولكن الإمــام وجــد فــيه سنداً له، ومعيناً عليّ، فقال له: "شايف شلون عبتطرقلــي وبتصــفقلي؟!!" .. أجــاب الشــيخ العابر: بنات آخر زمــان.. بــنات آخــر زمــان.. وتابع طريقه ليخرج من الباب الجنوبــي. فردد الإمام: أجل.. بنات آخر زمان. فالتفت إليه قائلة: ســأقف معــك يوم القيامة أمام الله ليعاقبك، لأنك منعتني من أداء الصــلاة فــي مسجد من مساجد الله ... ... أطرق الإمام قليلاً، ثم سحب رأسه من فتحة النافذة، وغاب خلف الستارة. وبعد لحظات، أخــرج رأســه ثانية ليقول لي بهدوء: تعالي سأفتح لك الحجازية لتصلي.

دخلــت الحجازيــة بســرعة، ولشــدة دهشتي واستغرابي، ولخوفــي من أن يغير رأيه، فيطردني، وقفت لأصلي متجهة نحو الغــرب، فنبهني إلى الاتجاه الصحيح للقبلة. أديت الصلاة بسرعة، ثــم أخذت بتسجيل المعلومات عن الحجازية، ولم أكتفِ بذلك، بل تــوجهت نحو الباب الفاصل بين الحجازية والقبلية، ومددت رأسي محاولــة الــتأكد مما سجلته في المرات السابقة من معلومات.. ثم انصرفت، وأنا أردد: الحمد لله في كل آن.. .. وكان الله في عون بنات آخر زمان!.

سؤال ما زال يحيرني إلى الآن

فور وصولي إلى باب الحديد، اتجهت إلى ساحة بنقوسا، وكلي رغبة في زيارة "مسجد باباجان" الذي ذكر لي أنه في بنقوسا. بدأت أسأل أصحاب بسطات وعربات الخضار الذين يملؤون الساحة، وكل منهم يقف مشدوهاً لدى سماعه اسم المسجد، ومعظمهم يطلب مني أن أردد الاسم مرة ثانية، ثم يقول: والله يا أختي نحن نعرف في هذه المنطقة " مسجد بنقوسا "، ويلتفت نحو الشرق مشيراً إليه. ثم يلتفت نحو الشمال متابعاً: وذاك " مسجد الحدادين "... ولا نعرف غيرهما. وفطنت إلى أن أصحاب البسطات والعربات غرباء عن المنطقة.. إذن عليَّ أن أبحث عن أحد أبناء الحي.

مر شاب يلبس سروالاً، وعلى رأسه طاقية مزركشة، وفي رجليه حذاء رفيع المقدمة، وقد كسر القسم الخلفي منه ليضعه تحت كعبيه علامة للرجولة. ولتأكيد رجولته كان يمشي مباعداً

عكسـيه عن جنبيه جاعلاً يديه كقوسين على طرفيه، يحركهما إلى الأمام وإلى الخلف. قلت لنفسي: هذا هو المطلوب.

لحقـت بـه: عفواً يا أخ، أو يمكنك أن تدلني على "مسجد باباجـان".. وقف مستغرباً متسائلاً: مسجد.. ؟! .. كررت: "مسجد باباجان". قال: من أين أتيت بهذا الاسم؟.. أجبته: هذا هو اسمه في السـجلات الرسـمية، وقد دلوني على أنه في بنقوسا. قال: أنا لم أسـمع بهذا الاسم من قبل، ولكن أنت أختي بعهد الله.. ولن أتركك حتى أوصلك إليه .. اتبعيني.. وتبعته..

كـان كلمـا رأى رجـلاً يعرفه، يبادره: مرحباً أبا حميد.. مـرحباً أبـا اصطيف.. أو تعرف مسجد..؟ ويلتفت إلي متسائلاً، فأردد: "باباجان" .. ويجيبون: لا يا ابنتي.. مسجد وباباجان؟!.. لم نسـمع بهـذا إلى الآن. ودخل فرميليك يلقي التحية على الجانبين، ويسـأل كل من يعرفه.. .. ووقف عند بائع الدندرمة "حبّو": كيف حالـك حـبّو؟.. هذه أختنا تريد أن تصل إلى مسجد.. والتفت إلي لأقـول: "باباجان".. وتابع: أو تعرف أين يقع؟. أجاب حبو: أبداً.. قـريب مـن هـنا مسجد سليمان.. مسجد جب قرمان.. ربما كان أحـدهما. أجـبت: لا.. لا.. أنـا زرت هذه المساجد من قبل، هو مسـجد آخـر. وأصـر حبو على أن يضيفنا دندومة "حفاظاً على سمعة المحل".

بقينا أكثر من ساعة نمشي في حارات وأزقة ضيقة متعرجة فـــي فــرميليك، البكرجي، الأبراج، شاكر آغا، جب قرمان، جب القـــبة... هو يوسع الخطا مردداً: أنت أختي بعهد الله، ولن أتركك إلـــى أن أوصلك إلى مسجد... ... وأنا أسرع خلفه لاهثة مرددة: باباجان .. شكراً جزيلاً... ...

وأخيـــراً تذكـــرت وجود اسمِ الخطيب بين أوراقي. ناديته: عفـــواً يا أخي، عندي اسم خطيب المسجد، ربما تعرفه.. إنه السيد مفيدِ خير الله. قال بحماس: قولي هذا من الأول... أبو حمِيد ... لا أعـــرف غيره... ... وعدنا أدراجنا في الحارات والأزقة الضيقة إلـــى أن وقف "أخي بعهد الله" أمام بابٍ متميزٍ، عليه مظاهر الثراء والنعمة، في زقاق ضيقٍ صغيرٍ مغلق، وطرق الباب منادياً بأعلى صـــوته: "أبـــو حمِيد" ... "أبو حمِيد" ... وخرج شاب، سلم عليه مرافقـــي وبـــادره بالســـؤال: والدك يخطب في أي مسجدٍ؟ أجاب الشـــاب: في "مسجد حمزة بك". ردد مرافقي: يا خسارة.. بعد كل هـــذا التعب ما وصلنا إلى نتيجة... كنا نظن أن والدك يخطب في مســـجد... والـــتفت إلـــي لأقول: "باباجان". أجاب الشاب: "مسجد حمزة بك" هو نفسه "مسجد باباجان".

ســـر مرافقـــي كثيراً والتفت إلي قائلاً: عظيم جداً... حُلَّت المشـــكلة... "مســـجد حمزة بك" لا أعرف غيره... لنعد من حيث انطلقنا... اتبعيني...

وعـدنا إلى ساحة بنقوسا، وصعدنا درجاً في الطرف الثاني مــن الساحة إلى حمزة بك... ووصلنا إلى مسجد صغيرٍ... (وكان مغلقــاً). اتجهنا إلى دكان فرّاءٍ مسنٍ أمام المسجد ليسأله مرافقي: هذا مسجد......؟ والتفت إلي لأقول: "باباجان". أجاب الفرّاء: نعم. ســألته: أعــندك مفتاح المسجد لندخل؟ أجاب الفراء: لا يا ابنتي، المفــتاح عند الإمام ومنزله بعيد من هذا المكان، ولا يفتح إلا وقت الصلاة.

وكانــت الشــمس قــد بدأت بالغروب، وعلي أن أعود إلى منزلي البعيد عن المنطقة قبل حلول الظلام...

شــكرت مرافقــي "أخــي بعهــد الله" والفرّاء جار "مسجد باباجــان" ... وانصــرفت وأنا أتساءل: لماذا كان "أخي بعهد الله" يــرفض أن يلفظ كلمة " باباجان[1] " ؟!! سؤال ما زال يحيرني إلى الآن!!

---

[1] بابــا جان: اسم علم من أذربيجان، ونستنتج ذلك من الفقرة التالية: " ومن آثار الأق قيونليين الطريفة، ذات الأصالة المعمارية، ضريح مجاور لمسجد بسيط، أنشئ عام ٨٩٠/١٤٩٢ للأمير بايــندر بن رستم بك في أخلاط.... واسم مهندس المبنى " بابا جان " وهو في الغالب من أهل أذربيجان، واسمه وارد في النقش الكتابي الموجود ". (أقطاي أصلان آبا: فنون الترك وعمائرهم ــ ترجمة محمد أحمد عيسى ــ إرسيكا ــ استانبول ١٩٨٧).

ممنوع الدخول

كلما وقفت في أعلى قلعة حلب بمحاذاة سورها المطل على الفرافــرة والبياضة، أجيل الطرف في أنحاء المدينة القديمة، كان يســتوقفني منظــر مــئذنة طويلة رفيعة وقبة مضلعة خضراء، تتوضعان على مرتفع قريب من باب الحديد.. إنها المئذنة الحديثة الوحــيدة فــي حلب القديمة. وكلما مشيت في الشارع المتجه من السبع بحرات إلى السجن القديم، ينشدُّ ناظري إلى تلك القبة وتلك المئذنة.. وما كنت أعرف لأي مسجد تعودان. لذلك عندما قررت الــبدء بجولاتــي على مساجد حلب، كانت منطقة باب الحديد في المقدمة. دخلت من باب الحديد متجهة إلى قبو النجارين، وقبل أن أصــله انحرفت إلى زقاق على يساري وصعدت مرتفعاً إلى أن وجدت نفسي واقفة أمام المدرسة الكلتاوية بمئذنة مسجدها الطويلة الرفيعة البيضاء وقبتها المضلعة الخضراء.

دخلــت إلــى صحن المسجد، فاستوقفني أحدهم متسائلاً ... قــدمت لــه نفسي، ووضحت له أنني أجري دراسة حول مساجد

حلـــب، ومعي موافقة من الجامعة ومن مديرية الأوقاف، قال: أنا لا أملــك صــلاحية الســماح، أو عــدم السماح لك بالدخول إلى القبلية... انتظري حتى يأتي الشيخ.

وقفــت ملصقة ظهري بأحد الجدران منتظرة ذلك الشيخ.. وبعد فترة من الانتظار دخل شيخ شاب أبيض اللون بلحية حمراء وملابــس بيضـــاء، فانحنـــى له الشيوخ الشباب الموجودون في الصـــحن وأخـــذوا يقــبلون يده الواحد تلو الآخر بأدب ونظام.. انشـــغلت بمـــراقبة هذا المنظر عن المهمة التي أتيت من أجلها، ولكـــن الرجل الذي التقيته أولاً نبهني وطلب مني التقدم.. وعندما لاحـــظ تـــرددي في الاقتراب من الشيخ، رافقني إليه، ونبهه إلى وجـــودي، إذ كان ما يزال واقفاً ماداً يده ليقبلها المشايخ الصغار. قـــدمت للشيخ نفسي ورجوته أن يسمح لي بدخول القبلية لأسجل ملاحظاتـــي الهندســـية، ولكنه وبصوت خافت، سمعته بصعوبة، قـــال: غير مسموح.. لم أصدق أذنيَّ فتساءلت: عفواً..؟!! كرر: غير مسموح.

خـــرجت وأنا أكاد أختنق إذ كنت قد استبشرت بمرآه خيراً وظننت أن شيخاً عنده كل هؤلاء الأتباع هو حتماً ذو عقل متفتح ونظرة بعيدة.

نــزلت المرتفع وأنا شاردة لا أصدق ما حصل، رأسي يكاد ينفجر فهذه أول صدمة أتعرض لها في بداية مشواري الطويل مع المســاجد والقائمــين عليها.. سرت على غير هدى.. دخلت قبو الــنجارين ... مشــيت في البياضة ... درت حول القلعة.. نزلت إلــى دائــرة الهجــرة والجوازات ... ووجدت نفسي أخيراً أمام المدرســة القرناصية. كان الباب مفتوحاً فدخلت، وقرب المحراب وجدت شيخين... قدمت لهما نفسي فرحبا بي كل الترحيب وقالا: خــذي حــريتك ... تفرجي ... اكتبي ... افعلي ما تشائين ... " سيماهم في وجوههم " ... فقلت: ليت كلَّ المسؤولين عن المساجد هكذا.. ورويت لهما ما حصل معي في مسجد المدرسة الكلتاوية، فعلق أحدهما: سامحهم الله.. أنصحك أن تذهبي في الساعة الثامنة من صباح السبت أو الأربعاء فهذا الوقت مخصص للنساء يزرن ضــريح الشيخ الكبير. قلت: لن أدخل بدون موافقة الشيخ.. ثم أنا لا أريد ضريح الشيخ، بل أريد المسجد.

بعد أكثر من سنة قلت لنفسي: ربما تغير شيخ المدرسة، أو تطــور تفكيــره، أو غيَّر رأيه فيَّ إذ أصبحت معروفة لدى أئمة المســاجد، ومــن المحــتمل أن يكونوا قد ذكروا أمامه شيئاً عن زياراتي للمساجد.

دخلت صحن المسجد ولمحت أشخاصاً يجلسون في غرفة شرقيّ القبلية.. كان الخادم يجلس في عتبة الغرفة، فصاح بي: ماذا تريدين؟ ..اقتربت منه بهدوء وقلبي يخفق.. إذ لمحت من النافذة ــ وكانت مفتوحة ــ ظهر شيخ بملابس فضية فاتحة وعمامة كبيرة بيضاء ... قدمت لهم نفسي، وطلبت أن يسمح لي بدخول القبلية ... ولكن الشيخ أجاب موجهاً كلامه إلى الخادم: غير مسموح ... قلت: عندي موافقة من الجامعة، وموافقة من مدير الأوقاف ... وقدمت له الأوراق، فاستلمها الخادم وسلمها للشيخ، وبعد أن قرأها لم يكلف نفسه عناء الالتفات إليَّ أو الحديث معي، وإنما رفع الأوراق بيده إلى ما فوق كتفه لأستلمها من وراء ظهره، دون أن أراه أو يراني !! .. وبصوت منخفض وجه كلامه للخادم: غير مسموح. تساءلت: لماذا غير مسموح؟ لقد قرأتم موافقة مدير الأوقاف وموافقة الجامعة.. ماذا تريدون غير ذلك؟.. كرر الشيخ موجهاً كلامه للخادم: غير مسموح. وهنا رفع الخادم صوته، وقد وجد له سنداً قوياً: قلنا غير مسموح ألم تسمعي؟ اخرجي.. انتهى الموضوع.

خرجت من المسجد والدموع تنفر من عينيَّ.. مشيت في البياضة بخطوات متثاقلة.. أفكر.. أحدث نفسي: يا الله ماذا أفعل؟ إلى من ألجأ؟ من يستطيع إقناع شيوخ هذه المدرسة؟ بمن

أســتعين؟ .. خرجت من البياضة، ودرت دورتين كاملتين حول القلعــة وأنــا أفكــر.. وأخيــرا رأيت أن أعود إلى باب الحديد، لأستعين بمختار المحلة خاصة وأنه من آل النبهان.

فــي مكــتب المخــتار كــان يجلس مجموعة من رجالات المحلــة.. عرضت عليهم مشكلتي مع شيخ الكلتاوية، وأنا منفعلة غاضــبة، فضحكوا كثيراً وقالوا: لن يسمح لك مهما فعلت. ولكن المخــتار أشفق عليَّ ووعدني بأن يتدارسوا الموضوع، وطلب أن أعــود بعــد يومــين.. عــدت إلى المختار حسب الموعد فبدأني بالقــول: بكــل أسف.. لا يمكنك الدخول وفق الأصول وبالطرق المشــروعة.. أقترح عليك أن تدخلي مع النساء صباح السبت أو الأربعــاء.. قلــت: إنهن يعرفن بعضهن، فإذا ما رأينني غريبة بيــنهن وبــيدي ورقة وقلم فسيتبادر إلى أذهانهن أنني من الــ.. ..لا.. لا.. لا أوافــق على هذا الاقتراح ... " ادخلوا البيوت من أبــوابها " ... ... ســأترك مكــان كل ما يتعلق بمسجد المدرسة الكلــتاوية فارغــاً، وسأكتب إنهم لم يسمحوا لي بالدخول ... ... سأســجل هــذا للتاريخ ... ... ومن الأفضل أن يكتبوا على باب مسجدهم: " ممنوع الدخول ".

هل أصبح كل الناس ممثلين ؟

دخلت باب إنطاكية ومشيت في السقطية مسرعة رغبة مني فـــي أن أصل إلى خان الجمرك قبل موعد أذان الظهر بوقت كافٍ لتصـــوير مســـجد خـــان الجمرك وأخذ مقايساته ، فهو يعود إلى العصـــر العثمانـــي، كما أنه المسجد الوحيد في حلب بمسقط أفقي مســـدس. وقفت، كالعادة، على باب الخان أتأمل زخارف واجهته الخارجـــية الرائعة بحسرة، إذ لا يمكنني التقاط صورة واضحة لها بسبب كثافة أسلاك الكهرباء والهاتف، بالإضافة إلى جهاز الإنارة "النـــيون" الطـــويل العريض الذي يتوسط فسحة المدخل، ويغطي مسقط الواجهة، ويمنع تصويرها من جميع الجهات ... قلت لنفسي بعـــد الحـــوقلة: متـــى ستدرس شركة الكهرباء مسارات تمديداتها وتجهيـــزاتها، فتضـــعها في الأمكنة المناسبة، فلا تحجب واجهات الأبنـــية الأثرية ولا تشوهها، ولا تحرم السياح وعشاق الآثار من

الاســتمتاع بجمالها، والتقاط الصور التي تخلد لحظات الاستمتاع تلك ؟ ...

صــعدت درج المسجد بسرعة، والتقطت صورة للمحراب، وأخرى للنقوش الجميلة الملونة في قمة القبة وعلى محيطها. نزلت درج المســجد، وصعدت درج الطابق الثاني من الخان في الجهة الجنوبــية، لألــتقط صــورة لقبة المسجد من الخارج... وقفت في الشــرفة مشــدوهة أمــام منظــر رائع، لم أره من قبل، فالواجهة الداخلــية لمــدخل الخــان مزخــرفة أيضاً، وهي تشبه بزخارفها وتــناوب الحجر الأسود والأصفر فيها واجهة مسجد الدرج، ويزيد المنظــر جمالاً ارتفاع القسم العلوي من مئذنة الجامع الكبير خلف الــواجهة، وأمــام المئذنة والواجهة ترتفع قبة نصف كروية كبيرة مغطاة بصفائح الرصاص فوق رقبة مسدسة. التقطت عدة صور، دون أن يعترضــني أحــد أو يسألني: ماذا تفعلين؟ ولكنني سمعت أطفــالاً يرددون: جاء سلوم حداد... جاء سلوم حداد ... نزلت إلى الأســفل فــرأيت عــدداً كبيــراً من المجندين منتشرين في ساحة الخان...

صــعدت إلى المسجد ثانية، وبعد أن أخذت مقايساته، خطر لــي أن أقوم بجولة في أرجاء الخان، وما أن سرتُ بضع خطواتٍ حتــى رأيــت الطــريق مســدوداً بجمع كبيرٍ من الناس يتخللهم

المجـــندون، تأملـــت الجمـــع باستغراب، وتناهت إلى سمعي كلمة " تلفزيون " ... حاولت أن أربط الأحداث: سلوم حداد ... مجندون ... تلفـــزيون ... الآن عـــرفت! إنهم يصورون الجزء الثاني من مسلسل "خان الحرير" .

غيـــرت اتجاهـــي، وقصــــدت بـــاب الخان ... وقفت أمام المحــــلات التجارية المواجهة للمدخل، أتأمل الواجهة الداخلية التي رأيتها من الطابق العلوي، وأسترجع من ذاكرتي واجهات المباني الأثرية في حلب التي تماثلها، أو تشبهها ... وقطع شريط ذكرياتي صـــوت امرأتين، تقفان في المحل التجاري خلفي، تسألان صاحب المحل بإلحاح: وهذه أيضاً ممثلة ؟ وهذه أيضاً ممثلة بالتلفزيون ؟ الـــتفت إليهما فوجدتهما تشيران إليّ ... أخرجت آلة التصوير من حقيبتـــي لألـــتقط صورة للواجهة، عندها فقدت المرأتان توازنهما، وأخـــذتا ترددان بصوت مرتفع: ماذا يحصل اليوم؟ هل أصبح كل الـــناس ممثلـــين بالتلفزيون؟؟ وأسرعتا إليّ تسألان: أنت ممثلة في التلفـــزيون أيضـــاً ؟ أجـــبت: أبداً ... استفسرتا: إذن ماذا تفعلين؟ رددت: أصـــور واجهـــة الخـــان، انظرا إليها كم هي جميلة، ألا تستحق التصوير؟

فـــي هذه اللحظة أقبل الممثل فراس إبراهيم، يريد الخروج مـــن الخان، فنظر إليَّ طويلاً، ثم أطرق ومشى بضع خطوات، ثم

رفع رأسه ليتأملني... وتابع طريقه، وأعاد النظر إليّ للمرة الثالثة ثم خرج ... ضحكت بيني وبين نفسي وتساءلت: هل يعتبر فراس إبــراهيم " أيضاً " منظر الفتاة التي تحمل الكاميرا لتصور منظراً غيــر عــاديٍ؟ ...أم أنــه ظننـــي إحدى زميلاته ... " ممثلة في التلفــزيون " ؟ ... مثلاً !!!. وانصرفت وتساؤلات المرأتين تتردد في مسمعيَّ: "هل أصبح كل الناس ممثلين ؟ ".

إن لنفسك عليك حقاً

فـــي حوالـــي الساعة الثامنة من صباح التاسع من آب عام ١٩٨٩ نـــزلت فـــي منتصف شارع السبع بحرات، كانت الحرارة مـــرتفعة، فاتجهـــت مسرعة إلى سوق الخابية اتقاء أشعة الشمس، فهـــو مسقوف. ومنه توجهت إلى المدرسة العثمانية في الفرافرة... دخلـــت المدرسة من بابها الغربي، لا أدري لماذا أحب أن أدخلها دائماً من هذا الباب؟ ربما لأن صحن المدرسة بأروقته التي تحيط بـــه، وحوض الزرع الذي يتوسطه ينبسط أمامي مباشرة. في حين إن دخولها من الباب الشرقي يتطلب أن أنزل عدة درجات إلى أن أصل إلى الصحن.

توجهت نحو أحد الخدم، إنه مسن محني الظهر، إنه يعرفني ولا حاجـــة لـــتقديم نفسي إليه، فلطالما زرت المدرسة للتصوير أو لأخـــذ المقايســـات. ســـألته أن يفتح لي باب الدرج الموصل إلى السطح... فتح باب القبلية، وصعد إلى الإيوان شمالي القبلية، على يمين الداخل إليها. فتح باب الدرج وأنار المصابيح. صعدت درجاً

ضـيقاً وأنـا أحمـل حقيبة ثقيلة بأدوات القياس. وقفت أمام القبة مشدوهة، إنها نصف كروية، مغطاة بصفائح الرصاص، تستند إلى رقبة دائرية من الحجر المنحوت مع بروزات داعمة لمقاومة الدفع الأفقـي. يـا لروعة البناء ودقة إحكامه! لقد مضى على بناء هذه القـبة أكثـر من٢٧٥ سنة، وما زالت محتفظة برونقها وجمالها، ترتفع في الفضاء عالياً تتحدى عوامل الزمن.

بدأت بأخذ مقايسات الرقبة والقبة فالسطح المحيط بهما، أذّن الظهـر فصـليت على السطح، وتابعت عملي تحت أشعة الشمس الحارقـة، وعندما أردت أخذ مقايسات سطح الرواق، كان عليّ أن أقفـز مـن سطح القبلية إلى سطح الرواق، فالفارق بينهما كبير.. سطح الرواق يتألف من ثلاث قباب نصف كروية، بدون رقبات ، ومغطـاة بصفائح الرصاص. بدأت بأخذ المقايسات.. أذن العصر فصـليت على سطح الرواق، وتابعت عملي. وعندما انتهيت كان عليّ أن أصعد إلى سطح القبلية، والصعود أصعب من النزول.

وصلت إلى باب الدرج.. الدرج مظلم جداً، لقد أطفأ الخادم المصـابيح!.. علقت حقيبتي الثقيلة في رقبتي، ووضعت يدي على جـداري الـدرج، وبـدأت أتحسس طريقي خطوة خطوة.. أردد بأنفاس متلاحقة: الحمد لله على نعمة الإبصار.. لقد جربت في تلك اللحظـات كيف يمشي الأعمى ــ حمانا الله من العمى ــ فالظلام

دامـــس. وصلت إلى الباب السفلي، وكان مغلقاً. يا للمصيبة! كيف أخـــرج؟ أخذت أطرق الباب بقوة، وأصرخ بأعلى صوتي: افتحوا لـــي الـــباب.. افتحوا لي الباب.. ما من مجيب، فباب الدرج داخل بيت الصلاة، وباب بيت الصلاة مغلق، إذ انتهت صلاة العصر منذ وقت ليس بالقصير... لن يسمعني أحد. تحسست طريقي كالأعمى، وصعدت الدرج مرة ثانية إلى السطح، وقفزت إلى سطح الرواق.. هناك أناس في الصحن.. ناديتهم.. وقفوا مشدوهين يتساءلون: ماذا تفعل هذه الفتاة على السطح؟ .. سألتهم أن يفتحوا لي باب الدرج.. وعلمـــت بعد فترة من الانتظار أن الخادم الذي عنده المفاتيح ذهب إلى بيته بعد صلاة العصر، ولن يعود إلى صلاة المغرب. ثم إنهم أشـــفقوا علـــيّ فبحثوا في الجوار، دوراً وحوانيت، إلى أن وجدوا مفتاحاً. طلبوا مني أن أنزل ريثما يفتحوا لي الباب.

صعدت إلى سطح القبلية، ونزلت الدرج أتلمس طريقي في الظـــلام، وعندما وصلت إلى الباب، وجدته مغلقاً ! .. أخذ العرق يتصبب مني بغزارة.. ماذا حصل ؟ طرقت الباب بقوة، وصرخت بأعلـــى صـــوتي: افـــتحوا لي .. افتحوا لي.. وسمعت من يقول: اصـــعدي الـــدرج إلى السطح، وانزلي من الدرج الثاني في الجهة الشـــرقية، فالمفـــتاح الذي عندنا يفتح الباب الشرقي فقط. صعدت الـــدرج للمـــرة الثالثة، وأحمد الله أن الباب العلوي للدرج الشرقي

كان مفتوحاً.. نزلت الدرج الثاني الذي كان مظلماً أيضاً، ويبدو أنه كـــان مهملاً قليل الاستعمال، إذ وجدت ثيابي، عندما خرجت إلى الـــنور، وقـــد امـــتلأت بالغبار وخيوط العنكبوت السوداء. نفضت الغـــبار والعنكـــبوت وأنا أقول: لا بأس.. المهم أنني أنجزت عملاً كبيراً في هذا اليوم.

جلســـت على مسطبة في الرواق أمام بيت الصلاة.. تأملت الـــرواق مـــن الداخل.. حدثت نفسي: لقد أخذت المقايسات الأفقية والشـــاقولية لبـــيت الصـــلاة فيما مضى من الأيام، واليوم أخذت مقايســـات الســـطح، وبقي أن آخذ مقايسات الرواق. أمسكت المتر وبـــدأت أقـــيس، وإذ بالخـــادم المسن المحني الظهر يدخل، ويتجه نحـــوي.. بادرتـــه معاتـــبة: أهكذا تحبسني على السطح يا حاج؟ وتطفـــئ الأنوار، وتغلق البابين عليَّ؟ سألني باستغراب: هل كنت علـــى السطح؟ .. لقد مضى عليَّ أكثر من خمسين عاماً وأنا أخدم فـــي هـــذه المدرسة.. صعد إلى السطح وزراء ومديرون، باحثون وأثريون، طلاب وسياح، وما مكث أحد منهم على السطح أكثر من عشر دقائق، ربع ساعة كحد أقصى، لذلك ظننتك نزلت وانصرفت دون أن أنتـــبه... ولكن.. ألم تعطشي ؟ ألم تجوعي ؟ ألم تحترقي بأشـــعة الشـــمس؟ لقـــد صـــعدت إلى السطح في الثامنة والنصف

صباحاً.. انظري إلى الساعة، أنها تقترب من السادسة مساءً.. ألم تتعبي ؟

أطـــرقت، ولـــم أجبه، ثم أمسكت المتر، وعدت إلى الرواق أتابـــع أخذ المقايسات. وهنا فقد الشيخ صبره، وصرخ بلهجة حادة آمرة: كفاك عملاً.. ارحمي نفسك .. لملمي أغراضك واذهبي إلى بيـــتك لترتاحي.. المدرسة باقية لن تطير.. غداً في الثامنة صباحاً، تجـــدين كل أبوابها مفتحة.. " إن لنفسك عليك حقاً " ... ... لملمت أغراضي، وانصرفت وأنا أردد: حقاً ... " إن لنفسك عليك حقاً "، ولكن هيهات أن نتذكر أن لأنفسنا علينا حقاً !

جامع السواس

فـــي جولاتي على مساجد حلب، كنت طيلة ثلاث سنوات، كلمـــا مــررت بســـاحة الملح أو برية المسلخ قاصدة مساجد باب النيـــرب، أو تلعـــران، أو دكاكـــين حجـــيج، أمر أمام مسجد في الصفصافة يصعد إليه بدرج، وكتب على واجهته "جامع السواس"، وأقـــرأ الـــتاريخ ١٩٨٧، فأتابـــع سيري محدثة نفسي: إنه مسجد حـــديث، وأؤجـــل زيارتـــه. وعندما قررت زيارة مسجد السواس وجدتـــه مغلقاً، فدلني الجوار على بيت المؤذن في زقاق قريب من المسجد.

طرقت الباب، ففتحته طفلة في حوالي العاشرة من عمرها، وبيـــنما كـــنت أسألها عن والدها، نادتها أمها من الداخل بعصبية وبصوت مرتفع: من بالباب ؟ أجابت الطفلة: امرأة تسأل عن أبي. فقالـــت الأم: أدخليها لنرى من هذه التي تريد أباك أيضاً ؟ وبعدما قـــدمت نفسي للزوجة، وبينت لها سبب سؤالي عن زوجها، هدأت وقالـــت: الـــيوم دوره عند زوجته الثانية، وعندما يكون عندها لا

يأتـــي إلى الجامع. سألتها: أو تسمحين لابنتك بأن تدلني على بيته الثاني ؟ أجابت بحدة: لا، لأنه لا يسمح لنا بأن نناديه، عندما يكون عـــندها، مهمـــا كانـــت الأسباب، ابقي عندنا إلى أن يقترب وقت الصلاة، ويفتح الإمام الجامع.

صعدت الدرج، ودخلت جامع " السواس "، وقصدت مباشرة القبلـــية، واجهـــتها على الصحن من الحجر الكلسي غير المشذب تمامـــاً، ومـــن الداخل تتألف من مجاز واحد، سقفه في الوسط قبة مدببة، وعلى جانبيها قبوان مهديان، والمحراب بسيط قوسه مدبب. حـــدثت نفســـي، وأنـــا أسجل ملاحظاتي: هذه مواصفات المساجد القديمـــة، وليس بين المساجد القديمة مسجد بهذا الاسم "السواس"، إذن ما الاسم الحقيقي لهذا المسجد ؟

بيـــنما كـــنت أهم بالخروج من القبلية دخل الإمام، وسألني بهـــدوء: أو تـــريد الأخت مساعدة ؟ أجبته: شكراً، لقد انتهيت من القبلية، وسأتابع جولتي في الصحن والغرف الملحقة به، فرافقني.

وقفنا أمام غرفتين في الشمال الشرقي من الصحن، إحداهما صـــغيرة وقديمة، سقفها قبو متقاطع، والثانية كبيرة وجديدة. علَّق الإمـــام بمـــرارة: هـــذه الغرفة الكبيرة المجددة والمطلية بالدهان للمـــؤذِّن، وهذه الغرفة الصغيرة القديمة لي أنا الإمام.. المؤذِّن في مســـجدنا يعطـــي نفسه صلاحيات كبيرة، إلى درجة أنه غير اسم

الجامع ونسبه إلى نفسه.. هو من بيت السواس، فجعل اسم الجامع: " جامــع الســواس ". الاسم الصحيح لجامعنا: "جامع كوجك " ... و" كــوجك[1] " كلمـــة تـــركية تعني "الصغير". سألته: وماذا يعني الـــتاريخ ١٩٨٧ علـــى الواجهة ؟ قال: هو تاريخ تزريق الواجهة الخارجية ورشها بالرشة التيرولية.

أطـــرقت رأســـي مفكرة: يا للغرابة!.. بعد بحث طويل دام أكثـــر مـــن ثلاث سنوات عن مسجد كوجك ما وجدته، بل شككْتُ بوجود مسجد بهذا الاسم.. واليوم أعثر عليه صدفة وبكل بساطة.

شـــكرت الإمام وخرجت من المسجد، وأنا أحدث نفسي: لو لم يكن المؤذن متزوجاً من ثانية، لما تمكن الإمام من بثي شكواه، ولمـــا اكتشـــفت "جامع كوجك " لأبين للباحثين وكل الناس، حقيقة " جامع السواس " .

---

[1] كوجك تعني الصغير باللغة التركية (küçük) .

ضاحية بلا إناث

كثيراً ما وعدني المهندس أنس خير الله بأن يرافقني لزيارة مسـجد سعيد بن جبير في الدباغات بالراموسة، فهو أحد المساجد التـي يفخـر بهـا. وبعد أن طال انتظاري قلت لنفسي: لقد زرت بمفـردي مسـاجد حلب جميعها، فلماذا أنتظر أن يرافقني الأستاذ خير الله إلى هذا المسجد؟ وقررت أن أذهب لزيارته وحدي.

ركـبت سـرفيس " المتحف ــ الراموسة " من المشهد ، وجلسـت فـي المقعد الفارغ المتبقي جانب الباب الأمامي، وكان السـرفيس وقتها (عام ١٩٩٠) كسيارات التكسي الصفراء، وكانت بقية الركاب من الرجال. عندما وصلنا إلى مفرق العامرية، توقف السـائق لـيقول لـي: انزلي يا أختي، هذه هي العامرية. قلت له: ولكنني سأذهب إلى الراموسة. قال: أظن أنك لم تفهمي على الذين دلّـوك، قفـي فـي الطرف الثاني من الشارع، واركبي سرفيس الراموسـة لتصـلي إلى البلد، هذا السرفيس ذاهب إلى الراموسة. قلـت له: وأنا سأذهب إلى الراموسة. رد: أنا متأكد من أنك لست

بكامل وعيك، أكرر (وأخذ يتكلم ببطء شديد ويركز على الكلمات): هذه السيارة ستتابع طريقها إلى الراموسة، هل فهمت ؟ وتابع: هل أنــت آنســة ؟ .. لا يــوجد مــدارس في الراموسة. أجبته: لست مدرســة، ولا أقصد مدرسة، بل سأزور جامعاً. قال: الآن فهمت، لا يوجد جامعة في الراموسة، كان عليك أن تأخذي سرفيس سيف الدولــة، لا بأس، "تحصل في أحسن العائلات"، انزلي وعودي إلى ســيف الدولــة. رددت: يا أخي، سأزور مسجد سعيد بن جبير في الدباغات، ولا أقصد الجامعة. سألني: وهل تعرفين أين ينتهي خط الســرفيس، وأين تقع الدباغات؟ أجبته، مظهرة الثقة متذكرة كلام مــن دلني: طبعاً، سأنزل أمام مكتب النقل، ثم أقصد الدباغات. رد بعصــبية، وبصــوت مــرتفعٍ وهو يضرب بكلتا يديه على مقود الســيارة: آمنا وصدقنا، ولكن كيف ستذهبين إلى الدباغات؟ وقبل أن أجيبه، تدخل الركاب بعد أن نفذ صبرهم، وقالوا له: إنها تعرف مــا تفعــل، بل تأخذك إلى البحر وتعيدك عطشاناً، امش وخلصنا. تنفست الصعداء، فما كنت أملك جواباً على التساؤل الأخير، إذ لم يكن لدي أي تصور عن الراموسة أو الدباغات.

لمــا ابتعدت السيارة عن العامرية، وجدت نفسي في طريق ســفر، وبــدأ الخــوف يتســلل إلى أعماقي، فأخذت أرقب طرفي الطريق بحذر...

نــزلت عند مكتب النقل، وبدأت السير في الشارع الرئيسي بالراموســة، أبحــث عــن قــبة ومئذنة ... توقف المارة، وترك أصــحاب المحلات التجارية أعمالهم، وصوبوا إليّ نظرات ملؤها التســاؤل والاستغراب.. تلفّتُ حولي، فما وجدت امرأة أو فتاة، لا يوجد أي أثر للإناث، وما رأيت منزلاً صغيراً أو كبيراً، كل ما في الراموســة رجــال ومحــلات تجارية، يغلب عليها اللون الأسود. تساءلت بيني وبين نفسي: هل يصدق أحد أنه يوجد ضاحية كبيرة فــي حلب خالية تماماً من الإناث؟!! وأن تواجد الأنثى فيها يعتبر شــيئاً غــريباً ولافــتاً للانتــباه إلى هذا الحد؟.. وهنا فهمت سبب استغراب السائق وغضبه، فأكبرته.

مشــيت قلــيلاً فــي الشــارع الرئيسي، وما زالت الأنظار مصــوبة نحــوي، فشعرت بالارتباك، ورأيت أنه من الأفضل أن أنحــرف إلــى أحد الشوارع الفرعية. وحمُدت ربي إذ لمحت في نهايــة هذا الشارع قبة ومئذنة ترتفعان على قمة تلٍ. أخذت أسير وأســير، والقــبة والمــئذنة صــامدتان بعيداً في مكانهما، وانتهى الشــارع، واخــتفت المحلات التجارية، واختفى الناس، وأصبحت وحيدة أمشي في طريق تمتد الصحراء على جانبيه شاسعة واسعة، وفــي الأفــق تــرتفع القبة والمئذنة. مضى حوالي ساعة ونصف

الســاعة، وأنا أمشي وأمشي وسط الصحراء، وأخيراً وصلت إلى التل، فصعدته بأنفاس متقطعة.

وصــلت المسجد، فوقف أهل الدباغات، وكلهم من الرجال أيضاً، ينظرون إليَّ باستغراب.

مــن غرفة مجاورة لحديقة المسجد خرج شاب طويل القامة رفيعها، بلحية كثيفة سوداء، وعلمت أنه الإمام. وبينما كنت أقدم له نفسي، وأطلب منه أن يفتح لي القبلية لأسجل ملاحظاتي الهندسية، ارتفع صوت المؤذن يدعو إلى صلاة العصر. أطرق الإمام رأسه، دون أن يــنطق بكلمـــة واحـــدة، وصعد الدرج بسرعة إلى ساحة المسجد، ولكنه لم يفتح باب القبلية، بل تابع طريقه إلى ما وراءها، فظنــنت أنـــه أسرع ليحضر المفاتيح، وكنت متعبة فلم أتبعه، بل وقفت أمام الباب أنتظر. انتظرت ... وانتظرت، وما عاد الإمام، فــتابعت طريقـــي إلـــى الواجهة الخلفية للقبلية، فوجدت الأبواب جميعها مغلقة... طرقتها واحداً واحداً، ما من مجيب... درت حول القبلــية أطــرق أبــوابها ونوافذها في الواجهات جميعها.. دخلت الحجازية والميضأة بحثاً عن الإمام... لا أثر له.

وقفت وسط ساحة المسجد أتلفت إلى الأمام والخلف واليمين واليســار، أتأمل وجوه الرجال الذين يتوافدون على المسجد ليؤدوا صـــلاة العصـــر، وما وجدت الإمام. صلى الرجال في الحجازية

مقـــتدين بأحدهم، وبعد أن أنهوا صلاتهم تطوع بعضهم بمساعدتي للـــبحث عـــن الإمـــام، إذ لا يـــوجد مفتاح للقبلية عند غيره، وما وجدناه، وما تمكنت من دخول القبلية، فخرجت من المسجد شاردة حائرة، أتساءل: لماذا وأين اختفى الإمام ؟

وقفـــت علـــى حافـــة الـــتل، أمامي طريقان ترابيان وسط الصـــحراء، أيها يوصلني إلى الراموسة؟ لا أذكر، إذ كانت عيناي مثبتتـــين على القبة والمئذنة عندما أتيت. سلكت الطريق الأيمن... مشيت ... ومشيت، وفجأة وجدت نفسي أمام مبنى ضخم تحيط به أسوار مرتفعة منيعة، يعلوها مجندون يحملون السلاح لحراسته ... خفـــت كثيـــراً، وما عادت رجلاي تحملاني، إذن لم أسلك الطريق الصحيح.

انحـــرفت نحـــو اليسار، ومشيت في طريق فرعي بمحاذاة السور، متوقعة أن يقودني إلى الطريق الآخر ... صوب المجندون نظـــراتهم نحـــوي، أخـــذ قلبي يخفق بقوة، والعرق يتصبب مني بغـــزارة. لجأت إلى الله أدعوه، وأقرأ القرآن لأبعد بعض الخوف عنـــي: اللهم أدخلني مدخل ... يا حي يا قيوم برحمتك ... قل هو الله ... قل أعوذ برب الفلق ... قل أعوذ برب الناس ... الله لا إله إلا هـــو الحـــي ... الحمد لله رب ... هيهات أن أكمل أية آية أو سورة، فالكلمات تتقطع بتقطع أنفاسي.

فـــي زاويـــة تقاطع هذا الطريق مع الطريق الآخر، جلس رجـــل مســـن محنـــي الظهر، أمامه صندوق صغير يبيع البندورة للمجـــندين... استأنســـت بـــه، بل وجدت فيه حامياً وسنداً قوياً.. انحـــرفت نحو اليمين، وسلكت طريقاً أوصلني إلى الراموسة، وقد بدأ الظلام يخيم عليها فزادها سواداً على سوادها.

ركـــبت الســـرفيس بعـــد انتظار طويل، وسؤال يتردد في أعماقـــي بإلحـــاح: هـــل علـــيَّ أن أمشي مرة ثانية ساعات وسط الصحراء على الأقدام، ليختفي الإمام ؟

صحفيّة

نــزلت من سرفيس الدائري الجنوبي أمام جامع جلال الدين الرومــي، واتجهــت غرباً قاصدة جامع يبنى حديثاً، مكان جامع الصــالحية الذي كان قد بناه بنو الباذنجكي ضمن مقبرة محمد بك في النصف الأول من هذا القرن. المئذنة ترتفع في السماء بنموذج معمــاري جديد هو الأول في مساجد حلب، والقبة قطاع من كرة مفصصــة مــن الخارج باثنين وثلاثين فصاً هي الأولى كذلك في مســاجد حلــب. منظــر القبة والمئذنة يغري بالتصوير. أخرجت الكاميرا لألتقط صورة عامة للجامع من بعيد ... تصايح الأطفال: صــحفيّة، صــحفيّة، وتراكضوا نحوي وهم يرددون: صوريني.. صــوريني.. صورة واحدة فقط، موقف اعتدت عليه في الحارات الشــعبية. الــتقطت صــورة من فوق رؤوس الأطفال، وقصدت الجامع.

القبة البيتونية جميلة جداً من الداخل، هي فرصة لأصورها قـبل أن تشوه بالدهان ... لمحني أحد العمال أصور، فلم يكلمني، بل غاب قليلاً ليعود ومعه أحد أبناء الباذنجكي، الذي علمت منه أن المنفق على بناء الجامع يريد أن ينفذ منبراً جديداً في حلب، يصعد وينزل بالخطيب على مجارٍ معدنية كالمصعد، ويتحرك بالكهرباء. اعترضـت علـى هذه الفكرة، إذ إن المصلين سينشغلون بمراقبة حركة المنبر صعوداً ونزولاً بدلاً من الانتباه إلى الخطيب. وإذا ما انقطـع التـيار الكهربائـي، وكثيـراً ما يحصل هذا يوم الجمعة، فسيصـبح الخطـيب قضية ينشغل بها المصلون بدلاً من الخطبة. اقتـنع محدثـي والبـنّاؤون الذين التفوا حولنا برأيي، ولكنه عقب بقـوله: هيهات أن يقتنع أخي المنفق على الجامع بهذا الرأي، لقد شـاهد منبـراً يتحـرك بالكهرباء في أحد جوامع السعودية، وهو مصرٌ على أن ينفذ منبراً مماثلاً في مسجدنا هذا.

وَدعـتهم وانصـرفت مسرعة قاصدة مسجد حسن حساني لأصور مئذنته الجديدة التي نفذت مجاورة لمئذنته القديمة، قبل أن تصبح الشمس في قمة السماء، أو تنحرف باتجاه الغرب، فيتوجب علي أن أعود لتصويرها في صباحِ يومٍ آخر.

مشـيت بمحاذاة السور الغربي لمقبرة محمد بك متجهة نحو الجـنوب، مطـرقة رأسـي، منشـغلة بقراءة الفاتحة على أرواح

الأمــوات. وعــندما وصــلت إلى نهاية المقبرة استوقفتني رائحة كريهة تنبعث من كل مكان، فلقد اتخذت زاوية المقبرة مربطاً لأحد الــبغال، كمــا ملئت المنطقة الممتدة خلف المقبرة بأكوام النفايات. لكــن منظــراً جميلاً شدني وأنساني الواقع، فقبة جامع الباذنجكي ومئذنته ترتفعان خلف الأشجار وشواهد القبور.

صــعدت منطقة مرتفعة من الأرض بين أكوام الزبالة، وما أن الــتقطت الصــورة، وهممت بالانصراف حتى رأيت من بعيد رجلــين يركضــان بسرعة ويتجهان نحوي، وكأنهما يخشيان أن أبتعد عن المكان قبل أن يصلا إليَّ. انتظرتهما وكلي تساؤل.. وقفا أمامــي وهما يلهثان، وأخذا يتكلمان بأنفاس متقطعة: الحمد لله... "الله بعــتك" ... "قصــرت تعنايتــنا"... كــنا سنذهب إلى الجريدة لنشــتكي. ترين أكوام الزبالة خلف المقبرة.. لقد اتخذ عمال البلدية مــن هــذه المنطقة مكاناً لتفريغ عربات النفايات.. لقد أكلنا الذباب والــبعوض، وخنقتــنا الــروائح الكريهة، نرجوك، اكتبي عن هذا الموضوع، أوصلي صوتنا للمسؤولين، فأنت كصحفية، قادرة على فعل ما لا نستطيع فعله.

أطــرقت رأسي متسائلة بيني وبين نفسي: ألا تحمل المرأة الكاميرا إلا إذا كانت صحفية ؟ لماذا يصر الناس على أن يجعلوني صحفية؟ أهو بتأثير المسلسلات المصرية ؟ أنا أعرف نفسي، لست

قـــادرة علـــى إيصـــال صـــوتهم إلى المسؤولين، ولا إلى جريدة الجماهير. إن بقيت صامتة أخدعهما، وإن أخبرتهما بالحقيقة خجلا وخاب أملهما. وبعد دقيقة من الصمت، لا أدري كيف خطر لي أن أســـألهما عن اسم هذه المنطقة في تصنيف البلدية؟ أجابا بسرعة، وكأن طاقة من الأمل فتحت لهما: إنها كرم سرَيْ ، كرم سرَيْ... قلـــت لنفسي: لقد زاد الموقف حرجاً، ثم توجهت إليهما بالحديث: ســـأبذل جهـــدي، سأحاول أن أذكر هذا الموضوع في أحد المنابر الثقافية، فأنا مهندسة باحثة، ولست بصحفية، ولا أستطيع الوصول إلـــى أيّ مسؤول. أطرقا رأسيهما، وانصرفا، ولسان حالهما يقول: يا ضياع الركض واللهاث وانقطاع الأنفاس.

حلاق الحارة

من مساجد العقبة ـ حسب قائمة رسمية ـ مسجد "البصمه جـــي". صـــعدت العقـــبة، ومشيت في شوارعها شارعاً شارعاً، وحاراتها حارةً حارةً، ووقفت أمام محلاتها محلاً محلاً، أسأل كل شخص ألقاه رجلاً كان أو امرأة، طفلاً أو شاباً أو مسناً عن مسجد "البصـــمه جـــي"، وما عرفه أحد. فقررت أن أنزل إلى المحلات الـــتجارية الممـــتدة فـــي سوق السقطية على طول الجهة الجنوبية للعقـــبة. دخلـــتها دكاناً دكاناً، وسألت أصحابها جميعهم، فكان كل مـــنهم يـــبدي أسفه لعدم قدرته على مساعدتي وينادي جاره: "لك خـــاي، ســـمعت شـــي بجـــيمع البصمه جي بالعقبة؟ الأخت هون عبتســـأل علـــيه".. ويكون الجواب النفي. ووعدني بعض من يقيم منهم بالعقبة أن يسأل جيرانه وأصدقاءه ومعارفه، فتولد عندي أمل بالعـــثور علـــيه، فكنت أذهب كل يوم إلى السقطية أسأل أصحاب المحلات عن آخر المعلومات لديهم، فلا أجد عندهم جواباً، فأصعد إلى العقبة أدور في حاراتها وأزقتها، أسأل كل عابرٍ، دون جدوى.

مضـــى علـــى ذلـــك أســـبوع، فأصبحت أتعثر في مشيتي بالســـقطية وبالعقبة، إذ صار أصحاب المحلات يشيرون إليَّ عندما يروننـــي منبهين بعضهم وقائلين: " أجت أم جيمع البصمه جي "، فمـــا كان أمامي سوى أن ألجأ إلى الموظف المسؤول عن المساجد في مديرية الأوقاف، وبعد أن شرحت له قصتي مع مسجد البصمه جـــي، وســـألته أن يدلنـــي على مكانه، قال لي: بكل أسف، أنا لا أعـــرف مكانه، ولكن يمكنني أن أخدمك بأن أرسل رسالة إلى إمام المســـجد أستدعيه إلى المديرية، وعندما يحضر أحدد معه موعداً، ثم أخبرك فتأتين إلى المديرية، ويرافقك إلى المسجد. قلت له: هذه العملية تستغرق وقتاً طويلاً.

خـــرجت مـــن مديرية الأوقاف وكلي تصميم على أن أعود مباشرة إلى العقبة لأستأنف البحث عن مسجد البصمه جي، فهنالك محـــل حلاق شمالي العقبة، في أحد الشوارع التي تتجه من العقبة إلـــى جـــب أســـد الله، كنت كلما وقفت أمامه أجده يحلق لزبون، فأنصرف ـــ تأدباً ـــ دون أن أسأله لاعتقادي بأن في وقوفي أمامه والـــزبون بـــين يديه تصرفاً غير لائق، وانتهاكاً لحرمة الزبون.. لكننـــي فـــي هـــذا اليوم سأسأل الحلاق، بل سأدخل محله في كل الأحوال.

خـــرجت من مديرية الأوقاف مسرعة، ودخلت المدينة من سـوق الزرب، فسوق العطارين فالسقطية، وصعدت العقبة قاصده محـل الحـلاق، وحمـدت الله إذ كان واقفاً أمام محله لعدم وجود زبـائن عنده. سألته: أو يمكنك أن تدلني على مسجد البصمه جي؟ قـال: طـبعاً، مسجد البصمه جي في بوابة قيس، في ذلك الزقاق على اليسار، وبيت الإمام في الزقاق نفسه، اذهبي إليه يفتح لك.

توجهت نحو الزقاق مسرعة، وأنا أكاد لا أصدق، أو يمكن أن أعثر على مسجد البصمه جي بهذه السهولة في هذا اليوم، وقد كنت قد قضيت أسبوعاً أمشي وأمشي ساعات وساعات؟

دخلـت المسـجد بلهفـة وتشوق كبيرين، وقفت في صحنه الصـغير أتلفـت، وفـي أعماقي تساؤل يلح علي: أو يستأهل هذا المسـجد الصـغير كل هذا التعب؟ .. منيت نفسي: لأدخل القبلية، فلربما أجد فيها ملمحاً هندسياً يلفت الانتباه.

القبلية غرفة صغيرة سقفها قبو متقاطع، جددت عام ١٨٧٧، والمحـراب بسيط قوسه مدبب. عزيت نفسي: إن في معرفة مكان هـذا المسـجد وتحديـده علـى خارطة مدينة حلب، وفي وصفي الهندسـي له، وتصنيفه ضمن مساجد العصر الذي بني فيه خدمةً كبيرةً للباحثين، يهون أمامها كل تعب. وانصرفت وأنا أردد: حقاً.. "عند حلاق الحارة كل أخبارها وأسرارها ".

السيد هو

دخلــت بــاب أنطاكية، ووصلت إلى المدرسة الشعيبية، ثم انحرفت يميناً إلى زقاق طويل، أوصلني إلى الشارع الرئيسي في الجلوم.. ترقبت رجلاً كهلاً قادماً من بعيد.. استوقفته: عفواً يا عم، أنــا مهندسة أجري دراسة حول مساجد حلب.. أو يمكنك أن تدلني علــى أقرب مسجد من هنا؟ قال لي عبارة ما زلت أذكرها لأنني استفدت منها كثيراً في جولاتي على مساجد الجلوم.. قال: في كل حــارة أو زقــاق يتفــرع عن هذا الشارع يوجد مسجد. شكرته، ودخلت أول زقاق وصلته على يساري، وبدأت أتأمل أبواب الأبنية باحثة عن باب المسجد.

وقفــت أمام باب توحي هيئته العامة بأنه باب مبنى ديني... سألت الجوار فأكدوا لي أنه باب مسجد الحارة، وأضافوا: اطرقي الــباب فالإمــام في الداخل... فتح لي شيخ كهل وقور، يلبس جبة أنــيقة ممسودة مصقولة، ويضع على رأسه عمامة ناصعة البياض بعــدة أدوار. قدمت له نفسي: أنا مهندسة أحضر الماجستير حول

مســاجد حلــب، أو تســمح لي بالدخول..؟ قال: ولكن أرجو أن تسرعي فوقتي ضيق، لقد اقترب وقت الصلاة. وبينما كنت أتفرج علـــى غرفته شمالي الصحن، سألته: ما اسم مسجدك؟ قال: "مسجد السيد هو" سألته ثانية: ولما سمي بهذا الاسم؟ أجاب: " السيد هو " تعنـــي: السيد هو الله، ولكنني لا أعرف سبب تسميته بهذا الاسم. قلــت: أعــتقد أن هذه التسمية حديثة، فالغزي يسميه بــ " مسجد حارة الشيخ نعسان ".

بعد أيام انتهيت من زيارة مساجد الشارع الرئيسي والأزقة والحارات المتفرعة عنه، وبقي في قائمة مساجد الجلوم مسجدان، لــم أعثــر عليهما هما: مسجد النور ومسجد الشبلي. سألت معظم أصــحاب المحــلات التجارية، واستوقفت معظم المارة، وما دلني عليهما أحد، وأخيراً قررت التركيز عليهما مسجداً مسجداً. وبدأت بمســجد النور. وبعد اجتماع في ورشة خياطة مع المعلم والزوار والعمال، وبعد مناقشات مطولة جرت فيما بينهم، توصلوا إلى أنهم عــرفوا مكــان مسجد النور، وأنهم متأكدون من ذلك، واستدعى رئيس الورشة أحد العمال، طلب منه مرافقتي إلى ذلك المسجد.

ســلمت الأجيــر قيادة أمري، ومشيت خلفه أفكر في أمور شــتى، وبعــد أن مشــينا مسافة لم أنتبه طالت أم قصرت، وقف الأجيــر أمــام بــاب، وقــال: هذا هو المسجد الذي أرسلني إليه

معلمـــي... الإمـــام فـــي الـــداخل، إذا طــرقت الباب يفتح لك.. وانصرف.

فتح لي رجل كهل حاسر الرأس يلبس "جلابية "، وقد شمر أكمامـــه، ورفـــع أذيال ثوبه استعداداً للوضوء.. بدأت بتقديم نفسي (كالعادة): أنا مهندسة.. .. وقبل أن أكمل العبارة قاطعني قائلاً: ألم تأت منذ أيام، وتتفرجي على المسجد ؟ ارتبكت كثيراً، صعد دمي إلـــى وجهـــي ورأسي.. ارتفعت حرارتي.. ورجعت خطوات إلى الـــوراء.. .. تأملت الباب، وتأملت الرجل، ثم سألته بتلعثم: أ.. أ.. أأنـــت السـيد هـــو؟ .. عفواً.. أنا أبحث عن مسجد النور. ابتسم وأجـــاب: بـــل أنا إمام مسجد السيد هو.. على كلٍ، تفضلي وألق نظــرة علـــى المسجد ثانية قد تفيدك، إلى أن أنتهي من الوضوء.. أســرعي فعليَّ أن أصل إلى مسجد الشبلي قبل أذان العصر. سألته بانـــدهاش: مسجد الشبلي؟ ستذهب الآن إلى مسجد الشبلي؟ ألست إمـــام هـــذا المســجد؟ أجاب: أنا إمام الظهر والعصر في مسجد الشـــبلي، وإمـــام المغرب والعشاء في هذا المسجد. قلت لنفسي: يا للصدفة! أتيت أبحث عن مسجد النور، فعثرت على مسجد الشبلي، وقررت أن أتبعه لأصل إلى ذلك المسجد الذي قضيت أياماً أبحث عنه.

خـــرج الإمام مسرعاً يوسع الخطى، إذ ارتفع نداء المؤذن لصـــلاة العصـــر... وصلَ إلى سوق السقطية، واتجه شرقاً وسط الزحام، وغاب عني بين عشرات المارة.. بدأت أركض أحاول أن أشـــق طريقـــي.. رفعـــت رأسي أبحث عن عمامته البيضاء بين الرؤوس... ثبتُ ناظري عليها خوفاً من أن تضيع مني.. ألهث .. أصـــطدم بالحميـــر والعـــربات .. بالدراجات .. بالرجال والنساء والأطفـــال.. بالبضـــائع علـــى طرفي السوق ووسطه.. لم أكترث بشيء فالمهم عندي أن لا تضيع العمامة البيضاء مني ... انحرف يميناً إلى زقاق، وبعد خطوات دخل المسجد.

يـــبدو أن الإمـــام وصـــل متأخـــراً، إذ كانت الغرفة مليئة بالمصـــلين الـــذين بـــدأوا الصلاة مؤتمين بأحدهم، ولم يجد الإمام المتأخـــر مكاناً سوى في الصف الأخير عند عتبة المسجد، فانضم إلى المصلين مأموماً لا إماماً.

وقفـــت بالباب أتأمل المسجد.. غرفة شبه مربعة كتب على بابهـــا: "مسجد سوق الجمرك"، قلت لنفسي: إذن مسجد الشبلي هو نفسه مسجد سوق الجمرك... لقد زرته من قبل.. يا خسارة التعب والـــركض واللهـــاث في سوق السقطية خلف عمامة الإمام وسط الزحام.

ابن أبي عمر

في جولة على مساجد حي الحيدرية، قصدت جامع الخيرات، لألتقط صورة للرواق أمام القبلية، فهو يتميز بأقواسه ذات الشكل نصف القطع الناقص المتجاوز... كان الجامع مغلقاً، ولم يفتح لي الإمام الذي يقيم في منزل تابع للجامع، مع أنني رننت عليه الجرس مرات عديدة، وكذلك فعل أصحاب المحل التجاري المقابل للجامع.

لقد بقي إلى موعد صلاة العصر حوالي الساعة، وتضييعاً للوقت بدأت جولة حول الجامع، ووقفت لألتقط صورة لمئذنته الجميلة، وقد ارتفعت بمحاذاتها بناية سكنية تسابقها بالارتفاع، وتطغى عليها، فالتف حولي أولاد الحارة صغاراً وكباراً، وكل منهم يردد بإلحاح: صوريني.. صوريني... أثار منظرهم حمية امرأة عابرة، فأبعدتهم عني وطردتهم، ثم أقبلت علي تعتذر مني، وتسألني عما دفعني للمجيء إلى هذا الحي.. وعما سأفعله بهذه الصورة؟ فأخبرتها بأنني طالبة في جامعة حلب أجري دراسة

حول المساجد، وأنني أنتظر موعد صلاة العصر لأدخل إلى جامع الخيـرات. قالـت: بيتـي على بعد خطوات من هنا.. تعالي معي لتســتريحي قلـيلاً وتشــربي كـأس ماء وفنجان قهوة ريثما يفتح الجامع.

تـبعت المـرأة دون تردد، إذ كنت متعبة جداً، فلقد خرجت مـن بيتـي حوالـي السابعة صباحاً، والتقطت صوراً لمساجد في أحياء متعددة ومتباعدة، وأخيراً وصلت إلى هذا الحي.

سـرنا فـي أزقـة وحـارات ترابية ... وانتهت حارات الحـيدرية، ووقفنا ننتظر أن تسمح لنا السيارات والشاحنات بعبور الطـريق العام الرئيسي الذي يفصل الحيدرية عن منشأة الكهرباء. سألتها: أما زال بيتك بعيداً ؟ أجابت: لا.. لا... وصلنا.. وصلنا.. سنشرب الماء والقهوة.

عبـرنا الشارع وأنا أحلم بفنجان القهوة وكأس الماء، وبدأنا نصـعد طرقاً صخرية وعرة شمالي منشأة الكهرباء.. .. ما عدت قادرة على المشي.. وقفت وسألت المرأة: أما زال بيتك بعيداً؟ لقد تعـبت وابـتعدت كثيراً عن جامع الخيرات! أجابت: معك وقت.. معـك وقـت.. سنشرب الماء والقهوة، وبالمناسبة تزورين جامع حارتـنا ... وقفـت عند العبارة الأخيرة وتساءلت: ما اسم جامع حارتكم؟ قالت: جامع القادسية. أجبتها: أنا لم أسمع بهذا الاسم من

قـــبل، أليس له اسم آخر ؟ .... رَدَّتْ: لا.. إنه يحمل اسم الحي، فأنت الآن في حي القادسية.

تشـــوقت لرؤية المسجد، ونسيت فنجان القهوة وكأس الماء، ونســـيت تعبي، بل صرت أسابقها في السير، وأمد بصري بعيداً، وأتلفت إلى اليمين واليسار أستكشف هذا الحي الجديد، وأبحث عن الجامع الجديد.

وصـــلت أخيـــراً إلى شارع معبدٍ، وفي منتصفه لمحت من بعـــيد قبة كبيرة ومئذنة رفيعة قصيرة... توقفت مستغربة، فالجامع يحمل سمات جوامع المهندس عادل ضاشوالي... القبة مجسم قطع مكافئ تغطي بيت الصلاة بكامله، والمئذنة والواجهات فقيرة برشة تيـــرولية صفراء، لكنني زرت جوامع ضاشوالي جميعها ــ حسب ظنـــي ــ وســـجلتها فـــي قائمة سلمتها للمهندس ضاشوالي نفسه، وســـألته أن يضـــيف إلـــيها أو يحذف منها ما لم يقم بتصميمه، ثم تدارســـتها معه، وما ذكر لي شيئاً عن هذا الجامع، وبعد دراستي وتحليلـــي للمساجد الحديثة بحلب قلت: إن أحداً لم يجرؤ على تقليد الضاشـــوالي، أو الاقتـــباس مـــنه. فأنا الآن أمام احتمالين: إما أن يكـــون هـــذا المسجد من تصميم الضاشوالي، ونسيه صاحبه، وفي وصـــولي إلـــيه وكتابتي عنه إضافة جديدة، أو أن مهندساً ما قلد الضاشوالي، وفي معرفتي اسم هذا المهندس إضافة جديدة أيضاً.

سألت إمام جامع القادسية عن اسم المهندس الذي صمم هذا الجامـــع، فأجاب بعدم معرفته، إذ عين حديثاً كإمام، ورافقني إلى منـــزل أحـــد أعضاء لجنة الجامع الذي سألته عن اسم المهندس، فأجاب بكل ثقة: إنه المهندس ابن أبي عمر. قلت: ما اسم المهندس ابـــن أبي عمر، وأين منزله أو مكتبه؟ قال: إن ابن أبي عمر يعمل حالـــياً فـــي "أبـــو ظبي". قلت: إذن ما اسم أبي عمر؟ دلني على منـــزله. أجاب: لا أعرف اسمه، ولقد سافر منذ أيام إلى ضيعته.. إنها سرمين... سرمدا... أرمناز... تفتناز... قرية ... قرية غربي حلب لا أذكر اسمها.

رافقني هذا العضو مع الإمام إلى بيت رئيس لجنة الجامع. ســـألت الـــرئيس: ما اسم المهندس ابن أبي عمر؟ قال: إننا نعرفه بالأســـتاذ ابـــن أبي عمر، ولكن لماذا تسألين عنه ؟ قلت: أريد أن أعـــرف اســـم المهندس الذي صمم جامع القادسية. قال: إنه ليس المهـــندس ابـــن أبـــي عمـــر... إنه.. إنه... إنه... ما عدت أذكر اســـمه... إنه مهندس كبير، وله جامع... جامع... وأغمض عينيه، وأخـــذ يضـــغط بـــيده اليسرى على جبهته، وهو يشير بيده اليمنى بالاتجـــاه الجنوبـــي الشـــرقي، ويـــردد: جامع... اللهم صلِّ على النبي... جامع... اللهم صلِّ على النبي... قلت: جامع جلال الدين الرومـــي أمـــام " الحـــاووظ " في باب النيرب؟ أجاب مستبشراً:

تعيشـــي.. إنه هو... وتابع: وله أيضاً جامع... جامع... وأغمض عينـــيه، ووضع يده اليمنى على جبهته مشيراً بيده اليسرى بالاتجاه الجنوبـــي الغربـــي، متابعاً: جامع.. اللهم صلِّ على النبي... قلت: جامــع طــارق بن زياد بضلاح الدين؟ أجاب: أجل... أجل... إنه هــو... إنـــه هــو... عمرك أطول من عمري. قلت: فأنت تقصد المهــندس عادل ضاشوالي!... قال: أجل... أجل... إنه هو... لعن الله الشيطان... لقد أنساني اسمه.

وفي هذه اللحظة ارتفع صوت المؤذن يدعو لصلاة العصر، فشكرت الإمام وعضوي لجنة جامع القادسية، وعدت مسرعة إلى جامع الخيرات، لأصله قبل أن تنتهي صلاة العصر، فيغلقه الإمام.

وبعدما أنجزت ما أتيت من أجله، انصرفت وأنا أكاد أطير مـــن الفرح، إذ اكتشفت حياً جديداً ... ومسجداً جديداً ... وتعرفت على مهندس جديد، ما كنت لأتعرف عليه طوال العمر ... ... إنه الزميل المهندس : " ابن أبي عمر ".

التصوير بين الحلال والحرام

في جولاتي على مساجد المهندس مصطفى حكمت يازجي، زرت عــام ١٩٨٩ جامــع عمــر بن عبد العزيز بمحطة بغداد. اســتقبلني الخــادم والمؤذن بكل ترحيب، وأخذ المؤذن يشرح لي بفخرٍ: مئذنة مسجدنا هي أطول وأرفع مئذنة في حلب، فسألته: كم يــبلغ طــولها؟ قال: لا أعرف، ولكن يصعد إليها بــ٧٣ أو ١٧٣ درجة، علقت مازحة: الفرق ١٠٠ درجة فقط، فوعدني بأن يصعد معــي المــئذنة لنعد درجاتها متى شئت. بعد أكثر من عام، دخلت الجامع بكل ثقة، فلي فيه معارف: الخادم والمؤذن.

أديــت صلاة الظهر خلف المصلين في الحجازية، ثم دخلت القبلــية لألــتقط صــورة للمحــراب والمنبرين على جانبيه. طال انــتظاري لأحد المصلين الذي جلس أمام المحراب يسبح ربه بعد الصــلاة، فــتوجهت إليه بهدوء، ورجوته أن يبتعد لألتقط صورة للمحــراب. وما كاد الرجل يبتعد حتى اقترب مني رجل يلبس ثوباً

بنـــي اللـــون، ويضـــع على رأسه منديلاً أبيض... إنه الإمام ... ســألني: ماذا تفعلين هنا ؟ فقدمت له نفسي، وأخبرته بأنني سألتقط صـــورة للمحراب، فقال: لا أسمح لك بذلك... التصوير محرم في الإســلام. أجبــته: حـــرم الإسلام صنع التماثيل التي تقلد خلق الله خشــية أن تعــبد، ولم يحرم التصوير لأنه "حبس ظل ما خلق الله علـــى ورق ممتهن" حسب رأي الفقهاء، خاصة إذا كان التصوير لأغــراض علمــية. ثـــم إنني أصور الأحجار فقط. كرر بصوت مرتفع وبلهجة حازمة: التصوير محرم، ولن أسمح لك. وهنا تدخل المصـــلون الذين التفوا حولنا قائلين: الآنسة على حق، فهي تصور المحـــراب، ولا تصـــور الأشـــخاص. أجابهم بحدة: قبلنا أن يأتي السياح الأجانب ليصوروا مساجدنا، أما أن تقوم بهذا العمل فتياتنا، فهذا أمر غير معقول ولا مقبول.

أذهلنــــي تعليق الإمام، وأطرقت قليلاً ثم قلت له بهدوء: أيها الشيخ، كيف تقبل أن يدرس الأجانب مساجدنا، ويفسروا ما يرونه فـــيها علـــى هواهم، وحسب معتقداتهم ؟ ولا تقبل أن يتطوع مسلم بدراستها وإيصالها إلى الآخرين بالشكل الذي تستحقه ؟

في هذه اللحظة وصل الخادم، وما أن رآني حتى التفت إلى الإمـــام قـــائلاً: الآنسة نعرفها منذ عدة سنوات، ولقد زارتنا مرات

عديــدة، ثم التفت إليَّ قائلاً: الإمام جديد لم يركِ من قبل، صوري ما تشائين. فأطرق الإمام رأسه، وانصرف وهو يسترجع ويحوقل.

التقطت صورة المحراب والمنبرين، وانصرفت وأنا أحدث نفســـي: يبدو أنه من الواجب أن تقام دورات تثقيفية للقائمين على المساجد، تعرفهم بالأسلوب الصحيح للتعامل مع زائري المساجد، من غير المصلين العاديين، وتبين لهم ــ في هذا المجال ــ ما هو الحلال، وما هو الحرام.

مصائب قوم
عند قوم فوائد

بعـــد جــولات عديدة على المساجد الحديثة في حلب بهدف دراســتها وتصنيفها، وجدت لبعض المهندسين الذين يساهمون في تصــميم المســاجد أسلوباً خاصاً بهم يميزهم عن غيرهم. اتصلت بأحـــدهم، وحـــددنا موعداً لزيارته في مكتبه، ومناقشته في بعض الأمور التي تتعلق بمساجده، وللحصول على مخططات لها. ومن حديثــي معـــه على الهاتف لاحظت أنه صارم ودقيق، فكنت على باب مكتبه حسب الموعد تماماً.

طــرقت الباب، ففتح لي ، ووقف على الباب خارج المكتب ... ... قدمت له نفسي، فرحب بي دون أن يدعوني للدخول. وقبل أن أسأله عما جئت من أجله، بدأ ــ بصفته أستاذاً ــ يسألني أسئلة اختــبارية ليعــرف، كمــا أظن، مدى جديتي وأهليتي للقيام بهذه الدراسة. وكان أول أسئلته التي وجهها إلي، وهو واقف على باب المكــتب طــبعاً وأنا أقف على استراحة الدرج: ما هو أول مسجد

بـــناه الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ قلت: مسجد قباء، بناه خارج المديـــنة المنورة قبل أن يدخلها، مهاجراً من مكة المكرمة، وصلى فـــيه بأصـــحابه جماعة ظاهراً، فكان أول مسجد جامع يبنى لعامة المســلمين. قـــال: صـــحيح أحسنت. ثم سمح لي بأن أبدأ أسئلتي، وكان يجيبني، وأنا أكتب متكئة على جدار الدرج، وإن احتاج إلى مخطـــط، كان يدخل إلى المكتب، فيحضره ويمسك به بعيداً عني، وكلـــه خوف من أن أقترب من المخطط أو ألمسه. وانتهت الزيارة على الدرج.

حـــدثت أســـتاذي المشـــرف علـــى بحثي بما حصل معي، فضـــحك كثيراً، وقال: بما أنك نجحت في الاختبار، ونلت رضاه، فسيسمح لك بدخول المكتب، ولربما يعطيك بعض المخططات في الزيارة القادمة.

قصـــدت مكتبه بعد عدة أشهر بناءً على موعدٍ مسبق، ففعل معـــي مـــا فعله في الزيارة السابقة، واستقبلني على الدرج. ومع معرفتي بخوفه الشديد على مخططاته، وانطلاقاً من حاجتي الماسة إلـــى هذه المخططات، فقد تجرأت وسألته أن ينتقي منها ما يوضح أســـلوبه المتميـــز، لأجري الدراسة عليها وأحللها. وعرضت عليه أحـــد أمـــرين: إمـــا أن يعطينـــي المخططات فأصورها، وإما أن يصـــورها لـــي، فرفض كلا الحلين. وانتهت الزيارة على الدرج

طبعاً، فانصرفت وأنا أحدث نفسي: إذا كان هذا هو موقف الأستاذ في الجامعة مني، فلا عتب على خدمة المساجد أو المؤذنين، أو حتى الأئمة.

مرت سنتان، وقاربت على الانتهاء من دراستي لمساجد حلب، واعتمدت في دراستي لمساجد هذا الأستاذ على ما التقطه من صور لها، دون مخططات. وفي أحد الأيام فوجئت بنعيه، وقد ملأت ملصقاته جدران حلب، حزنت كثيراً لوفاته، ففيها خسارة كبيرة لحلب.

بينما كنت أحدث أحد أساتذتي عن مشكلتي مع هذا الأستاذ، نصحني بالاتصال بأسرته. وفعلاً اجتمعت بزوجته وابنته في بيته، ووجدت منهما ترحيباً وتعاوناً كبيرين، وقالت لي ابنته: مع أنه يصعب عليَّ كثيراً دخول مكتب أبي بعد وفاته، إلا أنني، ولأجلك سأبحث لك عن مخططات المساجد، وسأقدم لك كل ما يساعدك على إنجاز دراستك.

وفعلاً، أعطتني ابنته مخططات مساجده كلها، فصورت منها ما يلزمني في دراستي، ثم أعدتها إليها، وشكرتها بحرارة، وانصرفت وأنا أكاد لا أصدق بأن مخططاته بين يدي، وأردد: " مصائب قوم عند قوم فوائد ".

بين النق والسق

أنتظــر بــاص النقل الداخلي لأسافر إلى الباب..أضع على سيارة تكسي تقف أمامي إضبارة مخططات كنت أحملها ... أفكر كــيف ســأوفق بــين دوام دبلــوم الهندسة الإنشائية، الذي أصر المســئولون في كلية الهندسة على أن يكون صباحياً وبين دوامي فــي شركة الكهرباء، وقد رفضت مديرة المرافق أن تعطيني إذناً إدارياً لحضور المحاضرات في الجامعة.

تقتــرب منــي امرأة بيضاء اللون خضراء العينين، تركت السنون على وجهها بعض التجاعيد.

ـ هل أنت مهندسة؟

ـ هززتُ رأسي إلى الأسفل.

ـ ستسافرين إلى الباب؟

ـ هززتُ رأسي إلى الأسفل.

ـ تقيمين في الباب؟

ـ هززتُ رأسي إلى الأعلى.

ـ تسكنين في حلب؟

ـ هززتُ رأسي إلى الأسفل.

ـ أين تسكنين؟

ـ في باب النصر.

ـ مع عائلتك؟

ـ هززتُ رأسي إلى الأعلى.

ـ تستأجرين بيتاً في حلب؟

ـ هززتُ رأسي إلى الأسفل.

ـ كم أجرة بيتك؟

ـ ١٥٠.

ـ تعملين في شركة النقل؟

ـ في الكهرباء.

ـ كم راتبك؟

ـ ٢٥٣٨.

ـ كم سنة مضت عليك في الوظيفة؟

ـ ٨.

استرسلَتِ المرأة في أسئلتها، واسترسلْتُ في الرد بهز رأسي إلى الأعلى أو إلى الأسفل، أو بكلمات محددة، وأنا أتأمل وجهها، وأنصت إلى لهجتها، وأحدث نفسي: ليستْ من الباب حتماً.

تابعت: ابنتي ... فرجي عن نفسك ... اضحكي ... لا يوجد في الدنيا ما يستأهل الحزن ... ترتسم على وجهك علامات

الحـــزن، وكأنـــك تحملـــين هموم الدنيا فوق رأسك. من يفكر في مصائب غيره يجد نفسه في جنة.

سأذهب الآن إلى بستان الفستق الحلبي في نقارين هرباً من البـيت، هــرباً من النَّقِّ والسَّقِّ. ابني شاب يجلس في البيت طوال الـيوم بلا عمل، ينام حتى الثانية عشرة، أو قولي حتى الثانية بعد الظهر، بلا حرج، وعندما يستيقظ يبدأ النق والسق، يجب علي أن أؤمــن له كل شيء، لا يشعر أنه مسؤول عني أو عن البيت، لقد توفــي والده وتركه لي، لا أدري متى سيشعر بالمسؤولية، وجود شــاب مــثله فــي البيت همٌّ كبير للأم. في البستان أتعب جسدياً، ولكنني أرتاح فكرياً... أعيش بين الأشجار ... في أحضان الطبيعة ... بعــيداً عــن البشر، أقطع الأغصان اليابسة من شجر الفستق الحلبــي، ولكي لا تنتقل السوسة أو الدودة من الغصن اليابس إلى الغصن السليم، سأحرق الأغصان اليابسة التي سأقطعها.

تســاءَلَتْ: هــلِ أحضــرتُ معي علبة كبريت؟ فتشَتْ في محفظـــة يدها، وفي ألبسة بالية تحملها. سألَتْ أحد الذين ينتظرون الــباص عــن علــبة كبريت ... فتشَتْ ثانية بين الأغراض التي تحملهـــا... تابعــت...آه وجدتها... سأعود مساءً إلى بيتي منهكة القوى، سأنام على جنبٍ واحدٍ بلا هز...

وجاء الباص... وركبنا جميعاً ... ووصلتْ إلى نقارين، وما انتهى النق ولا السق... ...

لحم الأفاعي

فـــي زيارة لعائلة أحد أقربائي، رأيت في صحن الدار أفعى كبيرة طويلة ثخينة... شعرت بالقشعريرة تسري في جسدي، قرفاً واشـــمئزازاً، لا خـــوفاً ورعباً، ولشدما كانت دهشتي كبيرة عندما رأيـــت رب الأسرة يقطع رأس الحية، ويبدأ بقشرها وسلخ جلدها، وعندما انتهى من عمله هذا، وضع الرأس والجلد في كيس نظيفٍ أنيق.

سألته: هل ستبيع هذا الجلد؟

أجـــاب: لا... لقـــد طلب إمام الجامع الكبير أن أرسله إليه، وألح في طلبه، وتعرفين أننا لا نستطيع أن نرد طلبه.

تساءلت بيني وبين نفسي: هل من تفسير ديني لطلب الإمام ... مـــاذا يريد من الرأس والجلد ؟ ... ولماذا الرأس والجلد ؟ ... ونظـــرت إلى الأفعى الطويلة الملتفة، وقد فقدت ميزاتها وشكلها، ولـــم يعـــد باستطاعة الناظر إليها أن يعرف حقيقتها... ... أجبت نفســـي: ربمـــا قصـــد الإمام أن يمنع افتتان الناس بها، فمثل هذه

الأفعـــى تســتحق أن تحنط ، وتحفظ في وعاءٍ زجاجي كبير عبرة للناظرين.

لكـــن دهشتي كانت أكبر عندما بدأ قريبي يقطع لحم الأفعى إلـــى قطع صغيرة.... .... يا إلهي ماذا يريد أن يفعل بهذا اللحم ؟ ... ... إن قريبـــي موظف في إحدى الدوائر الرسمية ... صحيح إن ســعر لحم الضأن مرتفع بالنسبة لرواتب الموظفين ! ولكن لا أظن أن أحداً يفكر بأكل لحم الأفاعي ! ... لا يمكن أن يحصل هذا أبداً ....

تلفــتُ حولي... هل من هرة جميلة عزيزة على أهل الدار، تستحق هذا العذاب والتحضير ؟ وأصخت السمع علّي أسمع مواءً ولو من بعيد... واستغرقت في التفكير ... ربما يحضر قريبي لحم الأفعـــى ليأخذه غداً معه إلى الوظيفة.... إذ انتشرت ظاهرة تربية القطــط فـــي غرف الموظفين، فكثيراً ما رأيت على الكونتوار في مركـــز جباية الكهرباء صحناً ملئ ماءً وبجانبه هرة شقراء اللون خضراء العينين، وفي إحدى زوايا الغرفة هرة بيضاء اللون زرقاء العينـــين، تلقــف قطع اللحم من يد أحد الموظفين، وبجانب المدفأة ثالـــثة سوداء اللون تنام قريرة العين. وكثيراً ما شغلتْ هذه القطط الموظفين عن قطع إيصالات المواطنين الذين ينتظرون على أحر من الجمر.

وتذكرتُ أبا نجيب في رئاسة الجامعة، وقد خرج من غرفته إلـــى الــبهو في الطابق الثاني، تلاحقه هرتان صغيرتان وأمهما، وبيده كيس نايلون شفاف فيه قطع لحم يوزعها على القطط الثلاث، فــتخطف كل واحدة حصتها، وتقف في زاوية من البهو تتلذذ بما تأكــل، بيــنما أقف أنا مسندة ظهري إلى أحد جدران البهو، أتأمل القطــط، وأرجــو أن يمنحني أبو نجيب شيئاً من اهتمامه، فيجيب على أسئلتي حول قرار الموافقة على موضوع رسالة الماجستير.

وقطـــع صـــوت قريبـــي شرودي وتفكيري منادياً زوجته: فاطمـــة ... أحضـــري المصفاة بسرعة ... اغسلي اللحم جيداً ... واســلقيه بطنجرة الضغط ... اطبخي لنا فريكة بلحمة ... أسرعي فابنة خالتي مدعوة إلى العشاء عندنا اليوم ...

ذهلــتُ ... ... وأخـــذت أراقب ما يصنعون وأنا واجمة... إذن هـــم يحضـــرون الفـــريكة بلحـــم الأفعى لي ... ... وشعرت بالغثـــيان ... وفـــي المساء مُدَّتْ أمامي قطعة كبيرة من النايلون المزهـــر، ووضع عليها "طشت" مليء بالفريكة والرز، وقمع بلحم الأفعـــى، وتفوح منه رائحة خاصة.... في هذه المرة كان الغثيان أقـــوى منـــي، فوضـــعت يدي على فمي ونهضت بسرعة قاصدة الحمام، فوقعت في حفرة عميقة مظلمة، وفتحت عينيَّ لأجد نفسي وقد سقطتُ من فوق سريري على الأرض، وأصبتُ بصداع شديد وغثيانٍ أشد !!

صارم القسمات

رن جرس الهاتف.. إنه السيد حسن، يدعوني إلى محاضرة سيلقيها في رابطة المحاربين القدماء... شكرته بحيرة، وفي ذهني تتصـــارع تســاؤلات عــدة: هل يسمح لأي إنسان بدخول رابطة المحاربين ؟... ألن يستوقفني أحد إن دخلت الرابطة ؟...هل تدخل نساء إلى رابطة المحاربين ؟ ...

دخلت الرابطة وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، وقلبي يخفق، أتلفت حولي ... أبحث عن أحد أعرفه فأستأنس به، فأنا أخاف من كل ما يتعلق بالجيش، فكيف وأنا أدخل مكاناً خاصاً بالمحاربين ؟

كـــان المحاضـــر يقف بجانب المنصة، وما أن وقعت عيناه عليَّ حتى أسرع إليَّ مرحباً بي أمام الحضور، وقادني إلى كرسي في الصف الأمامي...

الـــتفتَ إلـــيَّ معظم الحضور... لا يوجد نساء... كلهم من الرجال، سلم عليَّ بعضهم بابتسامة وهزةٍ بالرأس... تباطأت دقات قلبـــي... كـــل شـــيءٍ طبيعـــي... كـــأي مكـــانٍ بحلب تلقى فيه المحاضرات الثقافية.

تابعــت المحاضــرة بهــدوء، وبعــد قليلٍ من المداخلات والمناقشــات التــي أعقــبت المحاضــرة، هممت بالانصراف... استوقفتني خزائن الكتب في بهو الرابطة، بل جذبتني إليها.. وقفت أقــرأ عــناوين الكــتب المنضدة بعناية على أرفف الخزائن: العقد الفريد... الحيوان... مقدمة ابن خلدون... ... ... اقترب مني رجل ربــع القامــة صارم القسمات، ليقول لي بلهجة جادة آمرة: ظلي مكانك ... لا تتحركي إلى أن أعود إليك.

تســارعت دقات قلبي... نشف ريقي... تساءلت بيني وبين نفسي: ماذا فعلت ؟ هل يحظر على الناس قراءة عناوين الكتب من خلــف الــزجاج ؟... لم ألمس الزجاج... مرَّرْت بصري بسرعة على عناوين الكتب.... هل فيها ما هو ممنوع؟ ... أو سري ؟ ... أعــدت قراءة العناوين: العقد الفريد.. الحيوان... المقدمة... كلها كــتب تــراثية معروضة في واجهات المكتبات العامة... هل يمنع الاطــلاع على الخزائن دون إذن مسبق ؟ ... إذن لماذا وضعوها فــي الــبهو ؟ ... ألــيس مــن الأجدر بهم أن يضعوها في غرفة مقفلة؟... ...

غــاب صــارم القســمات طــويلاً ... أو ظننت أنه غاب طــويلاً... أيــن هــو؟ ... أين ذهب... ماذا يُحضِّر لي ؟... ماذا سيفعل بي ؟... بعد دقائق عاد ليقول لي بتلك اللهجة الآمرة: اللواء يطلبك... الحقي بي ... جمدت في مكاني... عقد لساني... تساءلت

بينـــي وبـــين نفسي: ماذا فعلت ليصل الأمر إلى اللواء ؟ ... لواء دفعة واحدة !.... من هو هذا اللواء ؟...

مشـــى خطـــواتٍ أمامي... ثم التفت إليَّ آمراً للمرة الثانية: الحقي بي ... تبعته بخطوات متثاقلة، ورأسي يكاد ينفجر لكثرة ما يتصـــارع فـــيه من الأسئلة عن المصير الذي ينتظرني في غرفة اللـــواء... وعـــندما انحـــرف نحو اليسار إلى ممر آخر، استوقفه أحـــدهم، ودار بيـــنهما حـــديث طويل، أو ظننته طويلاً.... تلفتُّ حولـــي: يـــا إلهـــي... لقدْ غادر الرابطة كل الحضور، لم يبقَ إلا الموظفـــون... ... وقطـــع عليَّ هواجسي صوت صارم القسمات: تلك هي غرفة اللواء... هناك... على اليمين... ادخليها.

تقـــدمت خطوات لأقرأ لافتةً جوار الباب تشير إلى غرفة رئـــيس الـــرابطة... ... كـــان باب الغرفة مفتوحاً... ومن خارج الغـــرفة رأيت اللواء رجلاً مسناً، هادئاً، يجلس خلف طاولةٍ خشبية قديمـــة الطـــراز، يغطـــي سطحها جوخ أخضر اللون، يعلوه لوح زجاجـــي... ثـــبت نظـــري على اللواء أتابع قسماته... لأستشف مصيري.... كان منشغلاً بالحديث مع آخرين يجلسون على مقاعد ملتصـــقة بالجـــدار المقابل لطاولته... لم أرَهم، بل لم أجرؤ على الالـــتفات إليهم... وقفت أنتظر أن ينتبه اللواء إلى وجودي... لحق بي صارم القسمات... بل تجاوزني إلى داخل الغرفة ليقول لرئيس الرابطة: هذه هي الدكتورة نجوى عثمان.

تنــبه الآخــرون إلى وجودي، فنهضوا مرحبين بي بوجوه مبتســمة مشــرقة: إنهم المحاضر وأصدقاؤه، وكلهم تربطني بهم صــلات قــوية... استأنســت بهم قليلاً، وجلست بقلقٍ على حافة كرسي في زاوية الغرفة أشار إليه اللواء. نقلت نظراتي المستفسرة بــين اللــواء والأصــدقاء.. ما الخطب؟... ...! قطع الزينو سلوم حيرتــي... ولــربما أســرع بالتوضيح إشفاقاً علي، فلا شك بأن مظهــري كان ينطق بما يعتمل في أعماقي... ... قال: عندنا في رابطة المحاربين القدماء برنامج ثقافي سنوي، كل شهر محاضرة، وتتــنوع المحاضــرات بين الفكرية والعلمية والأدبية، ولقد حدثنا ســيادة اللــواء (رئــيس الرابطة) عنك، واقترحنا عليه أن تكوني محاضــرتنا فــي الشــهر بعد القادم، سنتصل بك لنتفق على يومٍ محــدد، هــل عــندك مانع؟ أجبته بارتباك وتلعثمٍ: أبداً... أبداً... يســعدني أن ألبــي دعوتكم... وليزيد اللواء في تهدئتي وطمأنتي، طلب لي كأس زهورات.

وأنــا أشــرب الــزهورات، ضحكت بيني وبين نفسي من نفسي، واسترجعت صورة ذلك الضابط المتقاعد، الذي لم ينسَ أنه محارب...

وفــي الحافلة... في الطريق إلى بيتي... كنت أتأمل بشرودٍ المــارة... المحــلات التجارية... وسائط النقل... وأنا أردد: ظلي مكانك... لا تتحركي... اللواء يطلبك...

لا بِكْشْ ولا بِكْشْكُمْ

من بين المشكلات التي واجهتني في تأريخ مساجد القيروان كــونها لا تحمــل تاريخــاً، فهي مبنية بالآجر الطيني الذي يتآكل بســرعة، ويحتاج إلى التجديد خلال فترات زمنية متقاربة. ولبيان الــتطورات التي طرأت على المساجد لجأت إلى مراسلات جمعية الأوقــاف التــي ترصــد أعمال الترميم والهدم وإعادة البناء التي أجــريت على المساجد، وبعض هذه الوثائق محفوظ في المدرسة الصحابية التي كانت في حالة ترميم.

أقمت عدة أشهر في الورشة بغرفة الموظفين الذين يشرفون على أعمال الترميم، أطلع على المراسلات.

فــي أحــد الأيام غادر الغرفة كل الموظفين، وبقي أحدهم، فــوجدها فرصة يعبر فيها عما يعتلج في نفسه. قال: أنت واحدة، ونحن مجموعة كبيرة من العمال والموظفين، ومع هذا نتكلم معك

دائمـــاً بلغـــتك الشـــامية، ولم تتكلمي يوماً ولو كلمة واحدة باللغة التونســـية. قلت له: أنا أتكلم اللغة العربية الفصحى بلهجة شامية. أما أنتم فتتكلمون لغة لم أستطع فهمها حتى الآن، إذ إنها مزيج من العـــربية المتونســـة، والفرنســـية المتونســـة، والبربرية المتونسة والتـــركية المتونسة أيضاً. قال: طيب، سلمي علينا بالتونسية على الأقل. أجبته: حاضر، علمني ماذا أقول لكم. قال: غدوة الحي كان عشـــنا وربي أحيانا (يقصد غداً إن شاء الله) عندما تدخلين صباحاً قولـــي: عَسْلامة، بِكْشْ، لا باس؟ قلت: هذا أمر سهل. وانصرفت إلـــى مركـــز الدراســـات الإسلامية، وأنا أردد هذه الكلمات طوال الطريق، لأتقن نطقها باللهجة التونسية.

فـــي صـــباح الـــيوم التالـــي دخلت الغرفة، فوجدتها مليئة بالموظفـــين، حييـــتهم: عَسْـــلامة ، بِكْشْـــكُمْ ، لا باس ؟ وإذ بهم ينفجـــرون ضـــاحكين بصوت مرتفع، ودموعٍ غزيرة، وكل منهم يصفق يداً بيد ويردد: بكشكم... بكشكم... قلت لهم: هذا ما علمني إيـــاه الأخ شكري، وتوجهت إليه متسائلة عن الغلط. وبما أنه كان مســـتغرقاً بالضحك معهم، فقد تركته وجلست في مكاني أنتظر أن تنحسر موجة الضحك التي كانت تجتاحهم.

توجه إليَّ الأخ شكري، وهو يجفف دموعه، معاتباً: هاكاكا يـــا أستاذة ؟ هاكا (هكذا) ؟ بكشكم ؟... بكشكم ؟... الله يسامحك،

بكشـــكم ؟ قلـــت: أنـــت علمتنـــي أن أقول بكش، وكنت بمفردك، فجمعـــتها لأشـــملكم جمـــيعاً. قاطعنا السيد حسن، رئيس الورشة، شـــارحاً: جمـــع بِكْشْ هو بِكُمْشِ، فبكش اختصار للجملة: هل بك شيء ؟ كما تقولون في الشام: كيف حالكَ ؟ وبكمش اختصار: هل بكـــم شـــيء ؟ قلـــت لشكري: أرأيت ؟ من يلبس جبة غيره يتعثر ويقـــع، كل واحد يفتح كتابه ويقرأ فيه. أخي... لا بكش ولا بكشم، بل السلام عليكم.

يعطيك العافية

تـــرتفع درجة الحرارة في صيف القيروان إلى حوالي ٥٠ درجـــة مئوية، فالتعرق من ثم غزير جداً، لذلك نرى بنطال راكب الدراجة، أو سيارة التكسي، أو الموظف الذي يعمل في غرفة غير مكيفة مبللاً عند مقعده. استنكرت هذا المنظر في البداية، ثم صار منظراً عادياً جداً.

فـــي هذا الصيف، كان علي أن أذهب كل يوم من القيروان إلـــى رقـــادة لأطلـــع علـــى المخطوطات والوثائق المحفوظة في المتحف.

ورقـــادة كانـــت مدينة كبيرة تبعد عن القيروان بحوالي ٩ ك.م. بـــناها إبـــراهيم الثاني بن الأغلب عام ٢٦٣ هـــ ، واتخذها عاصـــمة لـــه، مما دفع أحد ظرفاء القيروان إلى أن ينشد مخاطباً الأمير:

يا سيد الناس وابن سيدهم	ومن إليه الرقاب منقـــادة
ما حرم الخمر في مدينتنا	وهي حلال بأرض رقادة

وقـد دمـر العبيديون رقادة بعد أن بنوا عاصمتهم المهدية. وفـي رقادة اليوم قصر الحبيب بورقيبة، الرئيس التونسي الأسبق، بـناه لينزل فيه عندما يزور القيروان، وفعلاً نزل فيه مرتين، وفي المرتين انقطع التيار الكهربائي، فتشاءم منه، وهجره، ثم وهبه إلى وزارة الـثقافة، فجعلـته مـتحفاً للآثار الإسلامية، ومخبراً لترميم المخطوطات.

كـنت أذهب مع موظفي دار الآثار إلى رقادة في الصباح، وأعـود معهـم إلى القيروان في المساء. وكانت الحافلة التي تقلنا غيـر مكيفة، فكان الهواء المحمل بحبات الرمل والذي يدخل من الـنوافذ المفـتوحة يلفح وجوهنا كلهيب النار، فكنا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

كـنت كلمـا هممت بالنزول من الحافلة، ألتفت إلى السائق لأقـول له: يعطيك العافية. وفي أحد الأيام كانت الحرارة مرتفعة جداً جداً، والجو خانقاً، فكانت الحافلة كالفرن، وعندما اقتربَتْ من مركز الدراسات الإسلامية الذي كنت أقيم فيه، توجهْتُ إلى الباب، والـتفت إلـى السـائق، كالعادة، وقلت له: يعطيك العافية. وإذ به يضـغط مكبح الحافلة بعصبية، فترتج بنا بقوة، ونترنح إلى الأمام وإلـى الخلـف، ويلتفت إلي قائلاً: عافية يا أستاذة ؟ عافية في هذا الجـو الخانق ؟ أجبته: وهل أفضل من العافية في مثل هذا الجو ؟

رد: أو مـــا يكفينا ما نحن فيه من عافية ؟ استغربت رده، والتفت إلـــى الموظفين مستنجدة، وإذ بهم يتعاطفون مع السائق، إلا واحداً، كـــان قـــد زار سورية لمدة شهر، اتبع دورة لترميم المخطوطات بمكتـــبة الأسد، التفت إلي قائلاً: يا أستاذة، العافية عندنا تعني نار جهـــنم، ثم تابع موجهاً كلامه إلى السائق: والعافية عند أهل الشام تعنـــي الصحة. قال السائق: لا أريدها، أرجوك يا أستاذة لا تقولي هذه العبارة مرة ثانية، فهي تثير أعصابي.

فـــي الـــيوم التالـــي، وقبل أن أنزل من الحافلة، التفت إلى السائق بشكل لا إرادي وقلت له بشكل لا شعوري: يعطيك العافية. وإذ به يثور ويضرب مقود السيارة بقوة ويقول: عافية مرة ثانية ؟ يا أستاذة ... يا أستاذة... تذكري اتفاقنا يوم أمس.

رددت: هـــذه عافـــية ســـورية وليســـت قيروانية، فضحك الموظفون، وضحك السائق.

غاب ولم يلوِ على شيء

مشـيت فـي أنهج وأزقة ضيقةٍ بربض رياح، أحد أرباض مديـنة القيـروان القديمـة، أبحث عن مسجد الصبايا. وفي زنقةٍ صغيرة مغلقة، وقفت أمام باب أخضر اللون وواجهة مطلية بالجير الناصـع البـياض، ككل مساجد القيروان، وعندما دخلته، وجدته مجـدداً فـي العصر الحديث، وسقفه من البيتون الهودري. سألت الإمـام والجـوار عن تاريخ التجديد، فلم يعرفوا... قال لي أحدهم هامسـاً: سأدلك على من يجيبك على سؤالك، إذ كان إماماً للمسجد وقـت الـتجديد، ولكن بشرط ألا تقولي أمام أحدٍ أنني دللتك عليه، قلت: لن أفعل اطمئن.

طـرقت بـاب الأستاذ (الإمام السابق) وهو يقع في الشارع الرئيسي المؤدي إلى الزاوية الصحابية، ففتحت لي فتاة بيدها كتاب دراسـي... قدمت لها نفسي: أنا مهندسة باحثة من سورية، أجري دراسـة حـول مساجد القيروان، أرغب بمقابلة والدك لأسأله عن

مســـجد ربـــض رياح. وما أن سمعت الفتاة أنني من سورية حتى تركتني في السقيفة[1] وانطلقت راكضة تنادي أمها بأعلى صوتها.

قبل أن تأتي الأم، فتح باب صغير في السقيفة، وخرج منه رجـــل تجـــاوز الســتين من العمر، وقد شمر أكمامه... ربما كان يســتعد للوضوء... أو هكذا خيل لي ... وما أن رآني حتى قطب جبيـــنه، وســألني دون أن يرد على تحيتي: نعم... ماذا تريدين ؟ قــدمت له نفسي، وأخبرته بأنني أريد أن أعرف فقط تاريخ تجديُد مســـجد ربـــض رياح. وبدلاً من أن يجيبني على سؤالي، أخذ هو يســألني، ونحـــن واقفـــان وراء الباب، عما أقوم به في القيروان، ومكان إقامتي، و... و...

أتت الزوجة مشرقة الوجه مرحبة: عَسْلامَة... بِكْشْ ؟ .. لا بـــاس ؟ ... الأهـــل لا باس ؟ قاطعها الأستاذ بتذمرٍ متابعاً أسئلته. ســألت الـــزوجة باستغراب: لماذا تقفين هنا ؟ تفضلي... وأشارت إلى غرفةٍ في الداخل... التفت إليها الأستاذ قائلاً بحدةٍ: ستنصرفُ الآن... وتابع حديثه.

غابـــت الـــزوجة قلـــيلاً، وعادت حاملة صحناً صغيراً جداً (صحن كأس الشاي) فيه قطعتان صغيرتان جداً من البقلاوة، أبعاد

---

[1] السقيفة في تونس هي الجزء المسقوف الذي يلي باب الدار، أي الدهليز عندنا.

القطعـــة لا تتجاوز ٢× ٢ سم، وبجانبهما شوكة صغيرة جداً جداً. عـــندها سمح لي الأستاذ بالجلوس على ديوانة في طرف السقيفة، قديمـــة تهتـــز مع كل حركة ، وجلس هو أيضاً عليها بعيداً عني. ألحت الزوجة علي كثيراً كي آكل... غرزت الشوكة الصغيرة في قطعـــة البقلاوة، فلم تحمل سوى الطبقة العليا من رقائق العجين... وتابعـــنا حديثنا... بعد قليلٍ قالت الزوجة: كُلِي... كُلِي... وقبل أن أحـــرك يـــدي، أو أنـــبس ببنت شفةٍ، التفت إليها الأستاذ، وأجابها بصوت مرتفع: لقد شَبِعَتْ ... ... وانصرفتُ دون أن يجيبني على سؤالي، ودون أن آكل البقلاوة.

بعـــد أيامٍ... أرسل في طلبي الكاتب العام بمركز الدراسات الإســـلامية الـــذي كنت أقيم فيه، ليقول لي: أخبرني الأستاذ فلان، وهـــو مفتش متقاعد للغة العربية، بأنك زرته في بيته، ولقد حدثته عـــنك، ووعدني بأن يجمعك اليوم في الساعة السابعة مساءً بأستاذ آخر خبير بتاريخ القيروان ومساجدها... لا تنسي الموعد.

اســـتقبلتني زوجـــته بكل ترحيبٍ، واصطحبتني إلى غرفة الضـــيوف، والتفت بناته حولي مبتهجاتٍ بوجود سوريةٍ في بيتهم. سألتهن عن الأستاذ، فقلن: إنه يعمل في بستانٍ صغيرٍ تابع للمنزل، وســـيأتي بعد أن ينهي عمله. انتظرت أكثر من ساعة، وأخيراً مد

رأســه من باب الغرفة ليقول لي بلهجة حادة آمرة: تعالي معي... وخرج من المنزل.

تقــف أمــام باب الدار سيارة بيك آب... يجلس شاب خلف مقــودها... قال الأستاذ: هذا ابني... اصعدي إلى الخلف، سنذهب الآن إلــى حــومة المنصورة للتعزية. قلت: ولكن الأستاذ تميمي أخبرتــي بأنــك ستجمعني بأستاذ ليعطيني معلومات عن المساجد! قال: إنه هناك في التعزية.. سأجمعك به هناك... قلت: ولكننا الآن بعــد المغــرب، ولقد اقترب وقت صلاة العشاء!! رد: نحن معك، وأنــت من قبل الأستاذ تميمي... اصعدي, صعدت السيارة وقلبي يخفــق، وكلي تساؤل: كيف سأقابل ذلك الأستاذ في التعزية؟ ومتى ســأعود إلــى بيتي؟... حاولت أن أطمئن نفسي: حتماً سيوصلني الأستاذ إلى مركز الدراسات بسيارته.

نــزلنا أمــام بــيتٍ متطرفٍ في حي المنصورة... لا يوجد بــيوت حوله، ويحيط به الظلام من كل جانبٍ... لا يوجد في تلك البقعة سوى النور الخافت المنبعث من نوافذ ذلك البيت الذي تحيط بــه حديقــة صــغيرة، ولا صوت في الحي سوى صوت ضعيف لــرجل يقرأ القرآن. قال الأستاذ: ظلي هنا .. سندخل للتعزية. ... أخــذ قلبــي يخفق بشدة، والعرق يتصبب من كل خلية من خلايا جسمي... وسألته: كيف سأقف هنا؟ أين الأستاذ الذي سأقابله؟ ...

قـــال: ربما يكون قد أتى للتعزية... ربما يكون في الداخل... وأخذ ابنه وغابا داخل المنزل......

انتظـــرت ... وانتظرت ... ولم يخرج أحد من ذلك المنزل المتطـــرف... فـــي ذلـــك المكان الموحش... انسحبت ... أسرع الخطـــا... أتلفـــت يميـــناً ويساراً... وتساؤلات شتى تتصارع في رأسي... كيف سأصل إلى غرفتي، وحافلات النقل الداخلي تتوقف عن العمل في الساعة الرابعة عصراً، وسيارات التكسي تتوقف في حوالي التاسعة ليلاً ؟

مشيت... ومشيت... في ذلك الشارع الرئيسي الذي يوصل إلـــى مركـــز الدراسات الإسلامية، والدموع تنفر من عيني... لا أدري خـــوفاً ... أم غضـــباً... ما من أنيس سوى سيارات عابرة، تمر بي مسرعة لا تلوي على شيء... تماماً كما غاب ذلك الأستاذ مـــع ابنه... في ذلك البيت المتطرف... في تلك البقعة الموحشة... دون أن يلوي على شيء...

أمي فطنة

عندما بدأت جولاتي الميدانية على مساجد القيروان، وجدتها مسـقفة بأعـواد العرعار، في حين سقفت غرفة الضريح في كل زاويـة بالقبة. وبما أنني أهتم اهتماماً كبيراً بالأقواس والقباب، فقد قـررت أن أزور الـزوايا بالإضـافة إلى المساجد. ومعظم زوايا القيروان وزعت في الستينيات على الفقراء، فسكَنَتْ في كل زاوية عائلة أو أكثر.

دخلـت ربـض سـيدي بلقاسم... وأخذت أسأل المارة عن زاويـة سـيدي بـو دربالة... طرقت الباب، ففتحت لي امرأة في حوالـي الخمسـين مـن العمر، وقبل أن أقدم لها نفسي، قال لها مرافقـي: هذه المرأة تريد أن تزور الزاوية... وما أن رأت المرأة الـورقة والقلم بيدي، حتى كادت أن تفقد عقلها، وأخذت تقول لي بصوتٍ مرتفعٍ وبعصبيةٍ زائدة: أنت من دار الآثار... أرسلك مدير دار الآثار ... تعالي لأريك الخراب في الزاوية.... وأمسكت بيدي تشـدني بقـوة... حاولت كثيراً أن أقاطعها... أن أسحب يدي من

يــدها... أن أفهمها أنني باحثة سورية ولا علاقة لي بدار الآثار... لا فائــدة... كانــت تقودني من غرفةٍ إلى غرفةٍ، ومن جدارٍ إلى جــدارٍ، وهــي تصرخ: انظري إلى هذا الشق... انظري إلى هذا الجــدار المــتهدم... انظــري إلى ... وانظري إلى... .... قولي لعارفِــك (مديرك) أن يرمم هذه الغرفة... وقولي لعارفك أن يبني هــذا الجدار... وكلما حاولت أن أفتح فمي لأتكلم، تقاطعني قائلة: أعــرفك.. أعرفك... كم تقدمت إليكم بشكاوى... كم رحت وجئت بــلا فائدة... أعرفك... أعرفك... ... ودخلت المطبخ وهي تتكلم بلا وعيٍ لشدة غضبها وحنقها على دار الآثار، ولم تنتبه إلا عندما صرختُ بأعلى صوتي، فتركَتْ يدي، وتراجعْتُ إلى أقصى زاوية في المطبخ ألملم ثيابي... ...

وسط المطبخ موقد (بابور) غاز، وعليه قدر من الألمنيوم، فــيه الطــبخة التــي يأكلهــا معظم أهل القيروان يومياً.... .... معكــرونة بفلفــل أحمر شديد الحرارة، وبزيت الحاكم (أي الزيت النباتــي الذي توزعه الحكومة)... وقطة بيضاء تقف على رجليها واضــعةً يديها على حافة القدر، تدخل رأسها في القدر، تلتقم شيئاً مــن المعكــرونة، ولشدة حرارة الفلفل الأحمر، كانت ترفع رأسها الــذيّ دهــن بالــزيت وتهــزه بقــوة يميناً ويساراً، فتتطاير قطع المعكرونة، ويتناثر رذاذ المرق الأحمر.

انشغلت ساكنة الزاوية عني بمناجاة قطتها: جعت ؟... الحق معـــك !... لقـــد نسيتك وانشغلت بهذه المرأة المرسلة من قبل دار الآثـــار، لنـــرَ مـــا ســـتفعله دار الآثار... وغرفت بيدها شيئاً من المعكـــرونة، وأكلـــته بكثيرٍ من التلذذ ... ... ووجدتها فرصة كي أفهمهـــا أننـــي من سورية، ولا علاقة لي بدار الآثار... وليتني لم أفعـــل، إذ أســـرعت إلـــي معتذرة، تحتضنني بيديها المغمورتين بالـــزيت الأحمر، وتقبلني بفمها المدهون وما حوله بالزيت الأحمر أيضـــاً، فاصـــطبغ منديلـــي الأبيض من الجانبين، وكذلك معطفي الفضـــي الفاتح باللون الأحمر... ولم تكتفِ بذلك، وتعبيراً عن شدة تـــرحيبها بـــي، أمســـكت بـــيدي تجرني نحو القدر كي أشاركهما طعامهما.

اعتذرت بشدة، ولكنها ألحت عليّ، وأنقذني من هذا الموقف الحـــرج صـــوت المـــؤذن داعـــياً إلى صلاة العصر، فقلت لها: ســـأزورك إن شاء الله في يومٍ آخر... أما الآن فعليَّ أن أصل إلى "مســـجد ســـيدي خمـــيس" فـــي ربض رياح، قبل أن ينتهي وقت الصلاة... قالت: قفي... لن أدعك تذهبين وحدك... أخاف عليك... ولفّـــتْ نفسها بسفساريتها البيضاء، ورافقتني.... .... وكان هذا من حســـن حـــظ إمـــام المسجد، إذ لم يدخل المسجد، ولم يقتدِ به أحد سوانا... ... وبعدما سجلتُ ملاحظاتي حول "مسجد سيدي خميس"،

أسرعتُ بالخروج، كي أعود إلى بيتي، فأبدل ثيابي. ولكن مرافقتي أصرت على أن تعطيني عنوانها، وودعتني وهي تقول: اكتبي لي ... أرســلي لــي بطاقات من سورية... ولا تنسي أن تكتبي على الظرف: يصل إلى أمي فطنة.

اللطف ... اللطف

قصـــدت زاوية صالح الكنائسي للمرة الخامسة أو العاشرة ... لا أذكـــر عـــدد المرات التي قصدتها فيها، ووجدتها كما كنت أجـــدها دائمـــاً مغلقة، فصعدت إلى مديرية الشؤون الفنية في بلدية القيروان، وجلست أحدث الموظفين عن معاناتي مع الزوايا المغلقة ... علـــق أحـــدهم: ستجدينها يوماً ما مفتوحة، سأنزل لأطلب لك كأســـاً مـــن القهـــوة تهدئ أعصابك... (لا تستغربوا... أجل نزل لـــيطلب لي كاساً من القهوة، ففي القيروان يشربون القهوة بالكأس الكبير الذي نشرب فيه الماء، ويشربون الشاي بكأس صغير جداً). غـــاب الموظـــف قليلاً ثم عاد مسرعاً ليقول وهو يلهث...: انزلي بسرعة... انزلي بسرعة... لقد رأيت زاوية سيدي صالح الكنائسي مفتوحة.

دخلـــت الـــزاوية فوجدت في غرفة الضريح عدة أشخاص يعقـــدون اجـــتماعاً، فالـــزاوية مقـــر لفرع منظمة الهلال الأحمر بالقيـــروان، قـــدمت نفســـي للمجتمعـــين، وقـــبل أن أبدأ بتسجيل

ملاحظاتـــي حـــول الزاوية سألني رئيس الجلسة: هل زرت زاوية ســـيدي ابن قوطة ؟ أجبته: كلما ذهبت إليها أجدها مغلقة، لذلك لم أتمكن حتى الآن من دخولها. قال: تستعمل زاوية سيدي ابن قوطة مستودعاً لمنظمة الهلال الأحمر، وهذا هو مولاها (يقصد المسؤول عـــنها)، اتفقي معه على موعد ليفتحها لك... ... اقترح المسؤول عـــن مستودع منظمة الهلال الأحمر أن أنتظره في الساعة الثالثة من مساء اليوم التالي أمام زاوية ابن قوطة ليفتحها لي.

***

وصـــلت زاويـــة ابـــن قوطة في حوالي الثانية والنصف، فصـــعدتُ الـــدرج الخارجي الذي يمتد ملاصقاً لواجهتها، ووقفت على المسطبة أمام باب الزاوية أنتظر أن يأتي مولاها... ...

فـــي الشـــارع أمامي كان رجل يقوم بتصليح سيارة تكسي، فمعظـــم محـــلات تصليح السيارات في هذا الشارع. رفع الرجل رأســـه، وعـــندما رآنـــي تراجع خطواتٍ إلى الوراء وهو يردد: اللطف... اللطف... ثم عاد إلى السيارة يتابع التصليح... وبعد قليل رفـــع رأســـه فرآنـــي، فتراجع إلى الخلف وهو يردد: اللطف... اللطـــف. وفـــي المـــرة الثالـــثة تراجع أيضاً، وردد: اللطف ... اللطـــف... فاقتـــربت من حافة المسطبة محاولة معرفة ما يحصل معه، ويجعله يقول: اللطف... اللطف...

عــندما رآني مصلح السيارات أتحرك، توجه إليَّ متسائلاً: "ســامحني... مــن أنــت" ؟ قلت: أنا مهندسة من سورية، أنتظر المسؤول عن الزاوية ليفتحها لي. أطرق قليلاً ثم ابتسم وهو يقول: ظننتك الولي... لم أنتبه عندما صعدت الدرج، فخيل إلي أن سيدي ابن قوطة خرج من زاويته... "سامحني... سامحني" ....

انتظــرت ... وانتظرت... واقتربت الساعة من الخامسة، ولم يأت المســؤول عــن الزاوية، فانصرفت وأنا أحدث نفسي: يحق لابن قــوطة أن يخــرج من قبره غضباً من ذلك المسؤول عن زاويته، ويحق لي أن أردد دائماً مع مصلح السيارات: اللطف... اللطف...

جاري آس

بعـــد أن أقمـــت أسبوعاً في فندق صبرة أمام باب الجلادين بالقيـــروان، انـــتقلت للإقامة في مركز الدراسات الإسلامية الذي خصص غرفتين للباحثين.

تقـــع غرفتي في منطقة صحراوية منعزلة بعيدة عن مبنى الإدارة، ولا يفصلها عن الأراضي الخالية المجاورة أي سور، ولا حتى سياج شائك. وخلف الغرفة بحوالي ٥٠ متراً أقيم مبنى يسكنه مديـــر معهد ابن الجزار، كما يسكنه المشرف الليلي على المعهد، وهو مدرسة ثانوية داخلية خاصة.

منذ اليوم الأول لإقامتي، وجدت كلباً يلازم غرفتي، فإذا ما خـــرجت فـــي الصباح لأبدأ جولاتي، يلحق بي وهو ينبح، ويهجم علـــي، فألتقط حصيات من الأرض وأرجمه، فيبتعد قليلاً عني، ثم يعـــود ليـــرابط أمام غرفتي. وعندما أعود في المساء أبدأ بالتقاط الحصـــيات قبل مسافة من الغرفة، وما أن يراني حتى يهجم علي،

فأبدأ برجمه، وأكوم ما يتبقى معي من الحجارة أمام الغرفة ذخيرة لليوم التالي.

مضــت عــدة أشــهر دون أن يتعرف علي أو يعترف بي جــاري الكلب، فأصبحت بشكل لا شعوري أغلق كل صباح باب غرفتـــي، وأنحني لألتقط الحصيات، وما أن أمشي بضع خطوات حتــى يهجم علي الكلب فأرجمه، فيبتعد وأبتعد بالاتجاه المعاكس، وفي المساء، ما أن يراني الحارس داخلة إلى المركز حتى يسارع ليرافقني إلى غرفتي ويساعدني في رجم الكلب.

وعــندما اقترب الصيف، وبدأت الحرارة بالارتفاع، صرت كلمــا عــدت مســاء إلى غرفتي أجد التراب وقد غطى المسطبة أمامهــا، ودخــل إلى الغرفة من الشق أسفل الباب، فأغسل الغرفة والمسطبة وأنا غاضبة، وكلي تساؤل عمن فعل هذا ؟

اشتكيت إلى إدارة المركز، فاستدعت الحارس، وطلبت منه أن يشــدد المراقبة على المنطقة، وبحكم خبرته بالكلاب، فهو ابن الريف، أخبرها مباشرة بأن هذا من فعل الكلب، فهو ينبش التراب السطحي ليصل إلى التراب الرطب البارد فيستلقي عليه. إذن كنت أســاعده علــى هــذا دون أن أدري. وازدادت وحشيته، فصار لا يســمح لي بالاقتراب من الغرفة مهما رجمته، أو رجمه الحارس، ففي عودتي إلى الغرفة تنغيص له.

وفـــي أحـــد الأيام كنت أطالع في مكتبة المركز، وقصدت غرفتـــي لأصلي الظهر، ولكنه لم يسمح لي بالاقتراب من الغرفة، وهـــب الموظفـــون لنجدتي، وتكاثرنا عليه نرجمه، ولكنه انتصر علينا، فعدنا إلى مبنى الإدارة خائبين.

جلســـت في غرفة الكاتب العام ــ نائب المدير ــ نتدارس قضـــية الكلب، فاتصل بالبلدية، وشرح لهم القضية، فكان جوابهم بـــأن هـــذا الكلـــب، حـــارس خـــاص لمديـــر معهد ابن الجزار، وسيتدارســـون معـــه الإجـــراء الأنسب لتربية كلبه، فإن لم يجدوا تجاوبـــاً منه، عندها يكون الحل الأمثل أن يضعوا للكلب سماً. قلت للكاتـــب العام: لا لن أسمح بأن أكون سبباً في موت أحد، ولو كان كلـــباً ... حـــدثت نفســـي: في الحقيقة الحق مع الكلب، إذ وضع ليحـــرس مبنـــى في الصحراء، لا يقترب منه أحد، ولم يجد أحداً يمارس عليه الدور الذي أوكل له غيري.

أطـــرقت مفكـــرة ... ضحكت... فتساءل الكاتب العام عما يضحكني، قلت له: عندما كنت أستعد للسفر إلى القيروان، زارتني إحـــدى قريباتـــي لتودعني، وأخذت تتحدث معي بعصبية ظاهرة معبـــرة عـــن غضبها لسفري، وبما أنها أمية، فهي لا تعرف شيئاً عـــن تونس أو القيروان، ومما قالته: أن تقيمي في حلب لتدرسي، أمر بالكاد فهمته، أما أن تسافري إلى بلاد الكلب والكلبة لتدرسي،

فهذا ما لم أتمكن من استيعابه أبداً، طبعاً كانت تقصد أنني سأسافر إلى بلاد بعيدة جداً. وهأنذا أعاني فعلاً من مشكلة الكلب.

في الشهر الأخير لإقامتي في القيروان، ما عاد الكلب يهاجمني، وما عدت أراه... افتقدته، وانشغل بالي عليه، ماذا جرى له، لقد عايشته سنة كاملة، فهل يعقل أن يغيب عني في أيامي الأخيرة؟ سألت عنه، فعلمت أن كلباً غريباً قدم إلى المركز، فتصدى له جاري الكلب، واشتبكا، ودارت بينهما معركة حامية الوطيس، انتهت بقلع إحدى عيني جاري، وكسر إحدى يديه، لا أخفيكم، قلت بيني وبين نفسي: " القوي بدو الأقوى منه ".

التقيت بابنة مدير معهد ابن الجزار في مكتبة مركز الدراسات الإسلامية، فبادرت تحدثني بحزن وأسى: أرأيت ما حل بآس، إننا في غاية الحزن والأسى عليه. سألتها: ومن يكون آس هذا؟ قالت: حارسنا الذي اشتكيت منه كثيراً، لقد أصابته عين، لا شك في ذلك.

بعد أيامٍ عاد "جاري آس" لمهاجمتي ... بعين واحدة وثلاثة أرجل ... بل لحق بالسيارة التي أقلتني مع أمتعتي إلى مطار قرطاج في تونس، ونبح كثيراً فكان آخر صوت سمعته في القيروان، متميزاً عن أصوات كل الناس، صوت جاري آس.

يزي... يزي

عـــندما زرت جامع نقرة، وهو أول جامع بني في القيروان في العصر الحديث، وجدته مغلقاً، وتكرر هذا. ثم علمت أن مؤذن هـــذا الجامع هو أخ لأحد مستشاري وزير الثقافة التونسي... إنني أعـــرف هـــذا المستشار، فلقد التقيته في اليوم الثاني لوصولي إلى تـــونس، إذ دعاني مستشار آخر لوزير الثقافة إلى تناول الغداء في بيته، وكان هذا المستشار مدعواً أيضاً.

قصـــدت بيت المؤذن، خلف زاوية عبيد الغرياني، وهو في الـــوقت نفســـه بـــيت العائلـــة، ينـــزل فيه المستشار عندما يزور القيـــروان. التقـــيت بـــأم المستشار وبنات أخيه، وعلمت أن والدة البنات توفيت منذ سنوات، وتركت بناتها الأربع لجدتهن ترعاهن، وتعتنـــي بهن، وهي امرأة طيبة جداً، مسنة، تجاوزت التسعين من العمر.

جلســـت مـــع البـــنات والجـــدة مطـــولاً، ودار بيننا حديث متشعب... أحببت البنات وأحببنني... وأحببت الجدة وأحبتني... بل فـــتحت لـــي صـــدرها، وحدثتني عن كل ما يختزنه صدرها من

الأسـرار العائلـية لأبـنائها المقيمين في تونس ويحتلون مناصب عالـية. وانـتهت الزيارة دون أن يأتي الأب المؤذن.... ودعدتني الجدة والبنات لتناول الغداء معهن في يومٍ حددناه، ولألتقي بوالدهن فيه أيضاً.

عـند وصـولي إلى بيت المؤذن في اليوم الموعود، كانت المائدة شبه جاهزة في سقيفة الدار... كان الغداء برغل بلحمة مع سـلطة الخضار.... والبنات صغراهن في مرحلة الدراسة الثانوية وكبراهن معلمة في مدرسة ابتدائية لم يعرفن طبخ البرغل فاستعن بخالتهن (أخت والدتهن) لتحضير الغداء.

جلست على المائدة وأنا منفعلة جداً، إذ شعرت بأنني كلفت هـذه العائلـة الكريمة فوق طاقتها (جهداً ومالاً)... ... سكبت لي صـغرى البـنات، وهـي أكثرهن نشاطاً ومرحاً، وبدأت تسكب لجـدتها، وإذ بالجدة تشير بيدها نحو الأسفل، وهي تقول: يزي ... يـزي. دهشت عندما سمعت هذه الكلمة... فالجدة تشير بيدها نحو الأسفل... وتستعمل فعلاً بصيغة المؤنث، وهذا أمر غير معروف باللهجـة التونسـية، فهـم يستعملون الفعل بصيغة المذكر للمؤنث وللمذكـر، كمـا هـو الحـال في أنتَ، فلا وجود لـ " أنتِ " في قاموسـهم.... حدثت نفسي: هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها كلمـة " يزي "... هل هي "هزي" وأنا لم أسمعها بشكل صحيح ؟؟ ولكـن الفعل " هز " في اللهجة التونسية يعني ارفع، والجدة تشير

بـــيدها نحـــو الأسفل، لا نحو الأعلى، وما سمعت أحداً قال: هزي لأنثى، بل هز.... ....

لاحظـــت البنات شرودي ومتابعتي لحركاتِ الجدة ورد فعل الأخـــت الصغرى.... .... سألتهن: هل تقول الجدة: هزي؟ أجابت الأخـــت الكبرى (المعلمة): بل قالت يزي. سألتها: وماذا تقصد ؟ أجابت: إنها تقول لأختي: لا أريد المزيد. تساءلت: وما أصل هذه الكلمة ؟ ردت: لا أدري... ربما يكون أصلها بربرياً... ... تابعت تناول الطعام وفكري مشغول بكلمة "يزي" وأصلها.

بعـــد الغـــداء حضَّرَتِ الخالة الشاي... فنادت الجدة إحدى البـــنات قائلـــة: أحضري معك زوز كاسة... واحدة لي والأخرى للأستاذة... .... رددت بيني وبين نفسي: زوز كاسة... تعني زوج كاســـة، أي كأسين حسب تفسير الجدة، غير المقصود للمعنى، إذن فـــي تونس، كما في دمشق، يقلبون حرف الجيم في بعض الكلمات زايـــاً، وبناء على هذا قد يكون أصل زاي يزي جيماً، إذن يزي، هي يجزي، أي يجزيء، التي تعني يكفي.... .... فرحت كثيراً إذ توصلت إلى فهم إحدى مفردات اللهجة المحلية التونسية وترجمتها ... وانصرفتُ، وتساؤل كبير يطرح نفسه: متى ستختفي اللهجات المحلـــية مـــن البلاد العربية، وتحل محلها اللغة العربية الفصحى، ونتخلص من الـــ " هز " والـــ " الزوز " والـــ " يزي " ؟؟؟؟

نهاية المشوار

فــور وصــولي إلــى القيروان، للمرة الأولى، خريف عام ١٩٩٢، توجهت إلى زاوية عبيد الغرياني (مقر دار الآثار) وكلي حمــاس ونشــاط واندفاع وتشــوق لبداية جولاتي الميدانية على المساجد.

دخلت غرفة مدير دار الآثار الذي سمع بمهمتي، وعرف ما أتــيت من أجله قبل أن أصل إلى القيروان، بل وصلته نسخة من كتابــي "مســاجد حلب"، أرسلتها له هدية من سورية فور صدوره .... قدمت له نفسي، وأوضحت له أنني أتيت إلى القيروان لأجري دراســة ميدانية على المساجد، في إطار تحضير رسالة الدكتوراه، التي موضوعها: دراسة هندسية مقارنة بين مساجد حلب ومساجد القيــروان. فكــان أول تعليق سمعته منه: لماذا أتيت من حلب إلى القيروان لتدرسي مساجدنا؟ نحن أقدر منك على القيام بهذا العمل.

صدمت بما قاله مدير الآثار... أطرقت قليلاً ثم أجبته: وما يمنع أن يأتي باحث من سورية لدراسة الآثار في تونس، فيحصل

تـــبادل ثقافي بين مشرق الوطن العربي ومغربه، ثم إنني سأدرس المســـاجد كمهندســـة مختصة بالهندسة الإنشائية وباحثة في تاريخ العلـــوم التطبيقية، وتدرسونها أنتم كآثاريين. قال: نحن لسنا بحاجة لباحثين من المشرق... وعلى أي حال: اليوم السبت لا يوجد عندنا دوام بعد الظهر، وغداً الأحد العطلة الأسبوعية... من الآن وحتى يـــوم الاثنين اكتبي برنامج عملك في القيروان، وأحضريه لي في الســـاعة السادسة مساء الاثنين لأدرسه، ثم أقرر إن كنت سأسمح لك بإجراء الدراسة أم لا ؟

خرجت من دار الآثار ورأسي يكاد ينفجر... أحدث نفسي: قـــد يسمح لي، أو لا يسمح ؟!!! ... بدأت المشاكل والمعوقات من اللحظة الأولى.

قضـــيت الليل أتقلب في فراشي... لم أستطع النوم ... أفكر فـــيما قاله مدير الآثار، وأفتش عن الحل. وفي الصباح الباكر من يـــوم الأحـــد بدأت جولة في القيروان... مشيت في الشوارع على غيـــر هدى شاردة أتأمل ما حولي... وأيقظني من شرودي صدمة ثانـــية... فالقيروان كما بدت لي من الجولة الأولى، مدينة صغيرة فقيرة، وكل مبانيها من الآجر الطيني، وكل واجهاتها بسيطة مطلية بالجير الأبيض، وكل المآذن التي صادفتها مربعة قصيرة لا تنوع فـــيها... كـــيف ســـأقارن هذه المباني بمباني حلب الحجرية الغنية

بالزخارف والمتنوعة الطرز المعمارية ؟ حدثت نفسي: قد تكشف الدراســة المعمقة مجالات للبحث... المهم أن أحصل على موافقة جهة رسمية في القيروان.

استرجعت من ذاكرتي الخطوات التي قمت بها قبل أن أبدأ جولاتي على مساجد حلب... لقد حصلت أولاً على موافقة مديرية الأوقــاف... إذن علي أن أسأل عن الجهة المشرفة على المساجد هــنا، إذ لا يوجد في تونس وزارة أوقاف ولا مديرية أوقاف ولا أوقــاف، بعــد أن بــاع الرئيس التونسي الأسبق الحبيب بورقيبة الأوقاف بالمزاد العلني عام ١٩٥٧.

صــباح الاثنــين تــوجهت إلى مبنى الولاية لمقابلة معتمد الشؤون الدينية، وعندما علم المعتمد بأنني باحثة من سورية رحب بــي قائلاً: أهلاً بسورية... أهلاً بسورية... في الجامعات السورية يــدرس عــدد كبير من أبنائنا... بماذا أستطيع أن أخدمك ؟ قلت: أريــد فقط كتاباً موجهاً إلى القائمين على الزوايا والمساجد القديمة والحديــثة فــي القيــروان يتضــمن الموافقة على زيارتها وأخذ مقايســاتها وتصويرها، فسطر الكتاب فوراً وأمر بطباعته، وأخذه بيده ليوقعه من المعتمد الأول ومن الوالي... وخرجت من الولاية وأنا أكاد أطير من الفرح.

فـــي السادسة مساءً كنت على باب غرفة مدير دار الآثار، حسب الموعد... ولكنه طلب مني الانتظار على بابه، إلى أن ينهي حديثه مع أحد الموظفين عنده.

جلست أمام مدير دار الآثار مطرقة الرأس هادئة أنتظر ما ســيقوله... بدأ حديثه بقوله: هل أحضرت لي البرنامج الذي طلبته مــنك، لأدرســه وأقرر إن كنت سأسمح لك بإجراء الدراسة على المساجد، أم لا ؟ أجبته بهدوء (وأنا أبذل جهدي لضبط أعصابي): هــل تعــتقد حضرتك أن باحثة من أقصى الشمال الشرقي للوطن العربــي تأتي إلى الجنوب الغربي منه لتحضر دكتوراه دولة، قبل أن تحصــل على الموافقات اللازمة ؟... يا أستاذ ... قبل أن آتي إلـــى القيــروان، أمضــيت سنة كاملة أراسل الجهات الرسمية في تــونس، وحصــلت خلالها على موافقة رئيس لجنة صيانة مدينة القيــروان، وعلـــى مــوافقة مديــر المعهد القومي للآثار والفنون بتونس، وعلى موافقة وزارة الشؤون الثقافية بتونس أيضاً، واليوم حصلت على موافقة معتمد الشؤون الدينية لزيارة المساجد القديمة والحديــثة وأخذ مقايساتها وتصويرها، وعليها توقيع المعتمد الأول والوالي ... ...

عــندما ســمع المدير بحصولي على موافقة معتمد الشؤون الدينــية، احمر وجهه وأخذ العرق يتصبب من جبينه وعلق بحدة:

ولمـــاذا زرت معتمد الشؤون الدينية ؟ قلت: لأنه المسؤول عن كل المســاجد القديمـــة والحديثة في القيروان، ولقد رحب بمهمتي كل التــرحيب... وكـــنت أتمنى أن ألقى منكم موقفاً مماثلاً، مرحباً لا معارضـــاً ... ... إذ فـــي دراستي هذه التي أقوم بها متطوعة ومتبرعة خدمة لكم وللقيروان ولتونس أولاً وأخيراً.... .... تقلص مدير دار الآثار في مقعده... وهو يقول: أخطأتِ فهمي.. ما كنتُ أقصـــد ... ... وقبل أن يتم جملته قاطعته: كان كلامكم واضحاً... ... وفـــي كل الأحوال... وقت إقامتي في القيروان محدود، وسأبدأ جولاتي على المساجد صباح غدٍ ...

خرجت من دار الآثار، وأنا أحدث نفسي: إذا كانت هذه هي بدايـــة المشـــوار ... فكيف ستكون نهايته ؟ ولا أخفيكم ظل مدير الآثـــار معارضاً لي، يبذل أقصى جهوده لعرقلة عملي، حتى آخر يومٍ قضيته في القيروان.

وعـــندما زرت القيـــروان صـــيف عام ٢٠٠١، أي بعد ٨ سنوات من دراستي للمساجد، توجهت فور وصولي إلى دار الآثار وكلي ثقة بأنني سألقى من مدير دار الآثار بعض الترحيب، إذ تأكد عـــنده، بعدما صدر كتابي "مساجد القيروان"، أنني مخلصة ومجدة في خدمة مدينته. ولم أنسَ أن آخذ معي كتابي " مساجد القيروان " لأقدمـــه هديةً له، فوجدت نسخة مصورة (فوتوكوبي) من الكتاب

علـــى طاولته، مما يدل على أهمية الكتاب بالنسبة له، ولكنه علق قـــائلاً: إن كـــتابك غني جداً، وفيه إضافات على درجة كبيرة من الأهمية، وهو أول كتاب علمي يؤلف باللغة العربية ليس عن آثار القيروان فقط، بل عن آثار أية مدينة في تونس، ولكن لماذا أنت؟

وعلـــى الرغم من تساؤله هذا، واستناداً إلى اعترافه بأهمية عملي حول مساجد القيروان، فقد أخبرته بأنني أتيت إلى القيروان لأكمـــل دراســـتي حول الزوايا، فأجابني وبكل صراحة: لن أسمح لك. ثم إنه لم يدخر جهداً في التضييق عليَّ، ومنعي من إجراء أية دراســـة على الزوايا. بل أغلق الزوايا التي كانت في حالة ترميم، وصرف العمال بإجازة مفتوحة إلى أن أغادر القيروان.

وهكـــذا، وبعد سنواتٍ، وعلى الرغم من كل الخدمات التي قدمتها للقيروان، هكذا كانت نهاية المشوار مع مدير دار الآثار.

الفهرس

تابع الفهرس

الموضوع	الصفحة





المؤلفة في سطور

- إجازة في الهندسة المدنية عام ١٩٧٨.
- دبلوم بتاريخ العلوم التطبيقية عام ١٩٨٤.
- دبلوم بالهندسة الإنشائية عام ١٩٨٧.
- ماجستير بتاريخ العلوم التطبيقية، (اختصاص تاريخ العمارة الإسلامية) عام ١٩٩١.
- دكتوراه بتاريخ العلوم التطبيقية، (اختصاص تاريخ العمارة الإسلامية) عام ١٩٩٨.

المؤلفات المطبوعة:

- الهندسة الإنشائية في مساجد حلب، جامعة حلب، عام ١٩٩٢.
- حلب في مئة عام (١٨٥٠ - ١٩٥٠)، بالاشتراك مع المرحوم محمد فؤاد عينتابي، جامعة حلب، عام ١٩٩٣، ٣ أجزاء.
- مساجد القيروان - مطبعة دار عكرمة، عام ٢٠٠٠.
- مكابدات لطيفة ومواقف طريفة (في أحياء حلب والقيروان)، عام ٢٠٠٤.
- النقل الداخلي بحلب في القرن العشرين، الجمعية السورية لتاريخ العلوم عام ٢٠٠٤.

عضوة في:

- مجلس الإدارة للجمعية السورية لتاريخ العلوم.
- جمعية العاديات السورية.
- لجنة الإعلام والنشر بنقابة المهندسين السوريين.
- هيئة تحرير "مجلة هندسة" التي يصدرها فرع نقابة الم... السوريين بحلب.
- جمعية الآثاريين العرب - المجلس العربي للدراسات العليا وال... العلمي، القاهرة.